

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير

سورة يونس

بقلم

سليمان بن محمد الهميد

السعودية / رفحاء

[www.almotaqeen.net](http://www.almotaqeen.net)

## مقدمة

سورة يونس سورة مكية .

● سبب تسميتها بذلك :

سميت السورة " سورة يونس " لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا ، بعد ان كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خص الله بها (قوم يونس) لصدق توبتهم وإيمانهم [ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ] !!

● موضوعها :

أ-سورة يونس من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الاسلامية (الايان بالله تعالى ، والايان بالكتب ، والرسل ، والبعث والجزاء) .

ب-بيان حقيقة " الألوهية " و " العبودية " واساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرفت الناس برهم الحق الذي ينبغي ان يعبدوه ، وان يسلموا وجوههم اليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحي المميت ، المدبر الحكيم .

ج-وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت ان هذا القرآن هو (المعجزة الخالدة) الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرد المعجز ، حيث تحداهم ان يأتيوا بسورة من مثله فعجزوا .

د-وتحدثت السورة عن قصص بعض الانبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله " يونس " الذي سميت السورة باسمه - وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في اهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

( الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) )

[ يونس : ١ ] .

( تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ) أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين .

( الكتاب ) أي : القرآن الكريم .

وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ. فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ)

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

(الحكيم) وصف للقرآن .

وقد وصف الله كتابه بأنه ( حكيم ) في عدة آيات : كقوله تعالى ( يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ) ، وقوله تعالى ( الر كِتَابٌ

أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) .

● والحكيم بمعنى محكم ، أو بمعنى محكم ، أو بمعنى حاكم ، كلها تحتل .

فالقرآن حاكم : لأنه يجب الرجوع إليه .

قال تعالى ( فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ) .

وبمعنى محكم : لأنه متقن للأشياء .

وبمعنى محكم: لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه، فليس فيه تناقض ولا تعارض (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا).

وأيضاً هو مشتمل على الحكمة .

وإذا كان حكيماً فإننا نعلم أنه :

أولاً : حكيم في ترتيبه .

ثانياً : حكيم في أحكامه ، فأحكامه كلها عدل ، موافقة للفطرة وللعقل الصريح .

ثالثاً : حكيم في أسلوبه .

ينتقل من أسلوب إلى آخر ، من ترغيب إلى تهيب ، وغير ذلك من الحكمة . ( تفسير سورة يس للعثيمين )

● وقد ذكر السعدي شيئاً من إحكام آيات القرآن الحكيم فقال :

من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها، وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم

يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء .

ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نعت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو

راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته فائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ والبليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا

اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا

يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن -مع أنه حكيم- يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن

الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

● ومن صفات القرآن :

منها : المجيد .

قال تعالى ( بل هو قران مجيد ) .

ومنها : الكريم .

قال تعالى ( إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ) .

ومنها : العزيز .

قال تعالى ( إنه لكتاب عزيز ) .

ومنها : المبارك .

قال تعالى ( كتاب أنزلناه إليك مبارك ) .

الفوائد :

١- إعجاز القرآن .

٢- بيان أن هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعاً من لسانهم ، وإنما هو من الحروف التي يتحدثون بها .

٢- من أسماء القرآن الكتاب .

٤- الثناء على القرآن بأنه حكيم .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) )

[ يونس : ٢ ] .

( أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ... ) أي : أكان عجباً لأهل مكة إيجائنا إلى رجل منهم هو " محمد ﷺ ؟ والهمزة للإنكار؛ أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة ، أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله .

• كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ( أَبَشَّرْ يَهُدُونَنَا ) .

وقال هود وصالح لقومهما ( أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ) .

وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا ( أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ) .

• وقد بيّن تعالى في مواضع أُخَرَ أَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ عَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ فِي عَجَبِ قَوْمِ نَبِيِّنَا ﷺ مِنْ ذَلِكَ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) وَقَالَ (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ) .

وَقَالَ عَنِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَّرْ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ) .

وَقَالَ (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَّرْنَا مِنْنا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ) .

وَقَالَ (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنْكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ) .

وَصَرَخَ بِأَنَّ هَذَا الْعَجَبُ مِنْ إِزْسَالِ بَشْرٍ مَانِعٍ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِيمَانِ بِقَوْلِهِ ( وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا ) .

وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ : أَنَّ اللَّهَ مَا أَرْسَلَ لِيَنِّي آدَمَ إِلَّا رُسُلًا مِنَ الْبَشَرِ ، وَهُمْ رِجَالٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَيَتَرَوَّجُونَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ؛ كَقَوْلِهِ هُنَا ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّبْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ) .

وَقَوْلِهِ ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، وَقَوْلِهِ : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ) .

• قال القرطبي: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقارنته وما أنسوا به ، ولدخلهم من الرعب والاتقاء له ما يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

( وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ) أي : وعملوا الصالحات . كما قال تعالى ( وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) .

هذا أمر من الله لنبيه محمد ﷺ بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عنده ، وصدقوا بإيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة ، أن له جنات تجري من تحتها الأنهار خاصة .

• التبشير الإخبار بما يسر .

- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) فيه استحباب تبشير المسلم بما يسره، لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه، وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم) .
- قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا) التبشير : الإخبار بما يسر ، وسمي بذلك لأنه يظهر أثره على البشرة وهو ظاهر الجلد، والغالب أنه يستعمل في التبشير بالخير، وقد يستعمل في الشر تحكماً كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم).  
( أَنْ هُمْ قَدِمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ) أي : بأن لهم سابقة ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الاعمال .  
وهذا كقوله تعالى ( لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا ) .  
( قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) أي : ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن ، قال المشركون : إن محمداً لساحر ظاهر السحر ، مبطل فيما يدعيه .

- قال البيضاوي: وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارفة للعادة، معجزة إياهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون، بأن ما جاء به خارج عن طوق البشر .  
وهكذا طريقة الأمم المكذبة : اتهام الرسل والدعاء بالسحر أو الجنون .  
قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).  
الفوائد :

- ١- تعجب الكفار من إرسال رسول من البشر .
- ٢- تعنت الكفار في خلق أعداء للتكذيب بالرسول .
- ٣- حكمة الله في جعل الرسول من البشر .
- ٤- أن من مهمة الرسول تبشير المؤمنين بكل خير .
- ٥- فضل الإيمان .
- ٦- من أساليب الداعية تبشير المؤمنين وتثبيتهم بذكر ما أعد الله لهم من الأجور الكبيرة على إيمانهم .
- ٧- الاقتداء بالنبي ﷺ بالصبر في الأذى القولي أو الفعلي الذي قد يواجهه من الأعداء .  
وقد قال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّىٰ أَنَا هُمْ نَصَرْنَا) .  
( وَأَوَدُّوا ) بالقول والفعل ، فقد أودى أنبياء الله بالقول والفعل.  
بالقول: فقد كان يقال لكل واحد منهم: ساحر ، ومجنون ، وكذاب.  
بالفعل: منهم من ضرب ، ومن قتل.  
لأن من قام بدين الإسلام ودعا الناس إليه ، فقد تحمل أمراً عظيماً ، وقام مقام الرسل في الدعوة إلى الله.  
والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر، ذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم ومألوفاتهم، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ، فلهاذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعائها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالا وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً.  
فأذية الداعية طبيعة البشر:

قال الله تعالى لنبيه (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّىٰ أَنَا هُمْ نَصَرْنَا).  
والرسل أودوا بالقول والفعل ، قال الله (وَلَقَدْ اسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).  
بل إن منهم من تعرض للقتل، قال سبحانه (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ).

ومن قام بما قام به الرسل ناله ما نالهم ، قال سبحانه (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا).

وبالصبر مع التقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ).

( إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ( ٣ ) )

[ يونس : ٣ ] .

( إِنَّ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) أي : أوجدهما من العدم على وجه الإحكام والإتقان.

• قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

• الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المرئي لهم بالنعمة الظاهرة والباطنة.

• ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

• قوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) أي: الذي أوجدها على تقدير محكم، لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير. والله يحمد على ذلك كما قال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) .

• وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المخلوقات .

• وخلقهما بالحق .

قال تعالى ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ )

أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً .

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لَاتَّخِذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ).

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

فمن الحق الذي كان خلقهما من أجله: إقامة البرهان على أنه الواحد المعبود وحده جل وعلا.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وقال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان ، صفات من يستحق أن يعبد ومن لا يستحق ، قال في صفات من يستحق العبادة (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا).

والآيات في مثل ذلك كثيرة تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق .

ومن الحق الذي من أجله خلق السموات والأرض ، تعليمه لخلق أنه تعالى على كل شيء قدير ، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، كما قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ

اللَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا).

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما: هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً ثم جزاؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيئ فقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَلْذَنَّبُوا مِنَ النَّارِ).

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، فقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ). فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). فقولته تعالى (فَتَعَالَى اللَّهُ) أي: تنزهه وتعظيمه وتقديسه عن أن يكون خلقهم لا لحكمة.

● قوله تعالى ( السماوات ) فيه دليل على أن السموات سبع، وهذا منصوص عليه في القرآن في آيات كثيرة كقوله تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) وقال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ).

وأما الأرض فهي سبع أيضاً لظاهر القرآن وصريح السنة، قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) وأما السنة فقوله ﷺ (من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين) متفق عليه.

● قوله تعالى ( فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة.

● قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء.

● وقال القرطبي: قوله تعالى ( فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة.

● وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام.

● وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

فقيل: كأيامنا هذه.

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه.

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة.

وقيل: المراد باليوم لحظة.

والراجع الأول.

● فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

فمن المقرر عند أهل الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل أن المولى جل وعلا قادر على كل شيء، وقدرته سبحانه ليس لها حدود، فله سبحانه مطلق القدرة وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئاً كان كما أراد وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها سبحانه وتعالى.

وقد تواترت النصوص القطعية من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ على تقرير هذا الأمر وبيانه بياناً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض.

قال تعالى (بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة (يبين بذلك تعالى كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن \_ أي: مرة واحدة \_ فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون).

وقال تعالى ( ... قال كذلك الله يخلق ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (هو الذي يحي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون).

وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية (٤ / ٢٦١): (وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون) أ. هـ.

• وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

**الحكمة الأولى:** أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها.

**الحكمة الثانية:** أن الله علم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه.

• هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت: (قُلْ أَتُكْمَلُونَ لَكُمُوهَا بِأَلَدِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ).

• **قال الإمام القرطبي:** وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفضل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد:

○ أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.

○ ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ...

○ وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ...

• **وقال ابن الجوزي:** فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.

والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.

والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علم عباده التثبت، فإذا تثبت من لا يزال، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.

والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق) ١. هـ.

• وقال القاضي أبو السعود ( ... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ١.

( ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته.

• والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.

● وفي الآية إثبات العرش.

والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه .

وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات، وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة:

**وصفه بالعظمة:**

قال تعالى (ورب العرش العظيم).

**ووصفه بأنه كريم:**

قال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش).

**وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:**

قال تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله ...).

وقال تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

**وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض.**

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

**وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس.**

قال ﷺ (إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

**وله قوائم.**

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

● في هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، استواء يليق بجلاله من غير تكييف.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

وقد فسر أهل التعطيل الاستواء بمعنى الاستيلاء، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو درهم راق

لكن هذا البيت لا يعرف قائله.

( يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ) أي: يدبر أمر الخلائق، في العالم العلوي والسفلي من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس،

وكشف الضر عن المضروبين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه.

كما قال تعالى ( لا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم

بالحاح الملحّين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار .

وقال تعالى ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) .

وقال تعالى ( وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ )

( مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ) فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.  
 كقوله تعالى ( مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) .  
 وكقوله تعالى ( وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى )  
 وقوله ( وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ) .  
 ( ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ) أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له .  
 ( أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ) الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

## الفوائد :

- ١ - أن الخالق لكل شيء هو الله.
  - ٢ - أن الذي لا يخلق لا يستحق أن يعبد.
- قال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ) .  
 وقال تعالى ( أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ) .  
 وقال تعالى ( هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ) .  
 ٣ - إثبات استواء الله على عرشه استواء يليق بجلاله.
- ٤ - إثبات علو الله تعالى.

( إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ) .  
 [ يونس : ٤ ] .

- ( إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ) يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه.  
 كما قال تعالى ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ) .  
 ( وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ) تأكيد ، أي : وعداً من الله لا يتبدل ، وفيه رد على منكري البعث حيث قالوا ( ما هي إلا حياتنا الدنيا موت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ) .  
 ( إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أي : أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ( وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) .
- ثم ذكر ما يترتب على الإعادة :
- ( لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ) بالله وصدقوا في إيمانهم .  
 ( وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) أي : وعملوا الأعمال الصالحات من واجبات ومستحبات ، إخلاصاً لله ، ومتابعة للرسول .  
 ( بِالْقِسْطِ ) أي : بعدله الجزاء الطيب الذي أعده لهم .  
 ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا ) بآيات الله ، وكذبوا رسله .  
 ( لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ) أي : لهم في جهنم شراب من ماء شديد الحرارة يشوي الوجوه ، ويقطع الأمعاء .
- قال الشنقيطي : والحميم : الماء الحار ، وذكر أوصاف هذا الحميم في آيات أخر .

كَفَّوْلِهِ ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنِ ) وَقَوْلِهِ ( وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ) وَقَوْلِهِ ( يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ) ، وَقَوْلِهِ ( وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ) ، وَقَوْلِهِ ( فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شَرِبَ الْهِيمِ ) .

وَدَكَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّهُمْ يُسْتَقُونَ مَعَ الْحَمِيمِ الْعَسَاقُ ، كَقَوْلِهِ ( هَذَا فَلْيُدُّوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ وَآخَرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ) ، وَقَوْلِهِ ( لَا يَدُوفُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ) ، وَالْعَسَاقُ : صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ - أَعَادَنَا اللَّهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ( وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ) من سائر أصناف العذاب .

قال تعالى ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَلْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ) .

وقال تعالى ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ) .

وقال تعالى ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ) .

وقال تعالى ( قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونَ ) .

وقال تعالى ( وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لَوْلَا جَلُدْنَاهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .

وقال تعالى ( فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ) .

وقال تعالى ( وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) .

وقال تعالى ( يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مِنْ أَذْبَرٍ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى ) .

وقال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ) .

وقال تعالى ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ) .

وقال تعالى ( إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ) .

وقال تعالى ( وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَمَّا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .

عن أنس بن مالك قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَعُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ ) رواه مسلم .

وَعَنْ سَمُرَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ( إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ ) .

وعن التُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ . قال : قال ﷺ ( إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوَضِعُ فِي أَحْصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ) .

وعن ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ( أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ ) .  
( بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ) أي : بسبب كفرهم بالله تعالى .

#### الفوائد :

١- أن مرجع جميع الناس إلى الله تعالى .

٢- إثبات البعث والجزاء .

٣- أن وعد الله حق .

٤- إثبات البعث .

٥- حكمة الله في بعث الناس يوم القيامة لفصل القضاء والحكم بين الناس .

٦- فضل الإيمان والعمل الصالح .

٧- كثيراً ما يقرن الله بين العمل وبين الصلاح ، لأن العمل لا يكون مقبولاً إلا إذا كان صالحاً .

٨- أن الأعمال الصالحات تصدق الإيمان .

٩- تهديد شديد للكفار .

١٠- أن الكفار لهم عذاب شديد في نار جهنم .

( هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ( ٥ ) ) .

[ يونس : ٥ ] .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ) يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وشعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلاثاً يشتهها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل .

● فالله تعالى وحده هو الذي جعل لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكي تنتفعوا بهما في مختلف شئونكم .

قال الجمل : وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر .

ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى ( وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ) .

وقوله تعالى ( تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ) .

( وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ) أي : وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر .

كما قال تعالى ( وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) .

وقال تعالى ( وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ) .

( لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ) بيان للحكمة من الخلق والتقدير.

فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

أي : جعل سبحانه الشمس ضياءً ، والقمر نوراً ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين التي يفيدكم علمها في مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم.

( مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ) أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة .

كما قال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ) .

وقال تعالى ( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ) .

( يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) استئناف مسوق لبيان المنتفعين بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده.

أي : يفصل سبحانه ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ، ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم.

الفوائد :

١- بيان رحمة الله بعباده حيث خلق وأوجد ما فيه مصلحتهم .

٢- بيان شيء من آيات الله العظيمة .

٣- أن الله لا يخلق شيئاً إلا لحكمة .

٤- من حكمة الله يفصل ويوضح وينوع الآيات للناس لعلهم يتقون .

٥- فضل العلم .

( إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَمِدُونَ ( ٦ ) ) .

[ يونس : ٦ ] .

( إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ) هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة ( لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاضان

كما قال تعالى ( يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ) . [ تفسير ابن كثير : ١ / ١٨٧ ] .

وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) .

وقال تعالى ( وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ) .

وقال تعالى ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمَنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) .

( وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) من أنواع الانس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى .

كما قال ( وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) .  
 وقال تعالى ( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) .  
 وقال تعالى ( أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ) .  
 ( لآيَاتٍ ) أي : لعلامات ودلالات وبراهين ودلائل عظيمة .  
 • قال القاسمي : عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كَمَا وكَيْفَا .  
 ( لِقَوْمٍ يَتَفَوَّنَ ) الله ، بامتنال أوامره واحتساب نواحيه .

وفي آل عمران ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) .  
 أي : العقول النامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على حليتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون .  
 وقال الله تعالى ( وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) .  
 وقال تعالى ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ) .  
 وقال تعالى ( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) .  
 • وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة .

• وخص سبحانه المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر في هذه الدلائل .

• قال ابن القيم : الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته ، والثاني : التفكير في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة .  
 فالنوع الأول كقوله ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ... ) وقوله ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ) وهو كثير في القرآن .  
 والثاني كقوله ( أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ) وقوله ( أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ) وقوله ( كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ) .  
 قال السعدي : وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة .

الفوائد :

١- أن من آيات الله العظيمة اختلاف الليل والنهار .

٢- أن آيات الله في السماوات والأرض كثيرة .

٣- عظمة الله تعالى .

٤- وجوب إفراد الله بالعبادة ، لأن الخالق هو المستحق للعبادة .

٥- رحمة الله بعباده ، حيث أن أراهم الآيات لكي يوحدوه ويفردوه بالعبادة .

٦- فضل التقوى ، حيث أنها سبب في الاعتبار والاتعاظ .

( إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ) .  
[ يونس : ٧ - ٨ ] .

( إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ) أي : كفروا بلقاء الله يوم القيامة .

والمراد بلقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم في الدنيا .

( وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أي : اطمأنوا لها ، وارتضوها بدلاً من الآخرة الباقية ، رضاء جعلهم لا يفكرون إلا في التشبع من زينتها ومتعتها .

( وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ) أي : ركنوا إليها ، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم ، فسعوا لها وأكبوها على لذاتها وشهواتها ، بأي طريق حصلت حصولها ، ومن أي وجه لاحت ابتدروها ، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها .

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها ، وكأنها ليست دار ممر ، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون ، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون .

( وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ) عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأترون بها .

● فأنت ترى أن الله تعالى قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة :

وصفهم - أولاً - بعدم الرجاء في لقاء الله تعالى بأن صاروا لا يطمعون في ثواب ، ولا يخافون من عقاب ، لإنكار الدار الآخرة .  
ووصفهم - ثانياً - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن أصبح همهم محصوراً فيها ، وفي لذاتها وشهواتها .

ووصفهم - ثالثاً - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة ، اطمئنان الشخص إلى الشيء الذي لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .

ووصفهم - رابعاً - بالغفلة عن آيات الله التي توفظ القلب ، وتهدى العقل ، ونحفز النفس إلى التفكير والتدبير .

وبالجملته فهذه الصفات الأربع تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على آخرهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

● ففي هذا ذم الغفلة عن آيات الله المتنوعة .

قال تعالى ( قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) .

وقال تعالى ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ) .

وقال تعالى مبيناً فضل التفكير :

( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ) .

● والتفكير هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرّات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره و قدر طاقته .

قال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

● وقد أمر الله بالتفكير في آياته في مواضع كثيرة .

قال تعالى ( وَقَالَ تَعَالَى ( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَاللُّدُنُورِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ) .

قال ابن القيم : إذا غذي القلب بالتذكر ، وسقي بالتفكر ، وثقي من الدعل ، رأى العجائب وألهم الحكمة .  
وقال رحمه الله : معرفة الله سبحانه نوعان : الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي .  
والثاني : معرفة توجب الحياة منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه ، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم .

● ولهذا المعرفة بابان واسعان :

الباب الأول : التفكير والتأمل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .  
والباب الثاني : التفكير في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط .  
وقال رحمه الله : والتذكر والتفكير منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان ، والعارف لا يزال يعود بتفكيره على التذكرة ، وتذكره على تفكيره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتح العليم .

سئلت أم ذر عن عبادة أبي ذر فقالت : التفكير والاعتبار .

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو .

وقال الفضيل : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقال ابن بطال : إن الإنسان إذا كمل إيمانه ، وكثر تفكيره ، كان الغالب عليه الإشفاق والخوف .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة .

وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساوٍ .

بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس ، ثم بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أهلي .

وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة .

قال ابن القيم معلقاً : وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح ، وأيضاً فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد .

وقال ابن الجوزي : همة المؤمن متعلقة بالآخرة ، فكل ما في الدنيا يحركه إلى ذكر الآخرة ، ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته ، والنجار إلى السقف ، والبناء إلى الحيطان ، والحائك إلى النسيج المخيط .  
والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر ، وإن رأى مؤملاً ذكر العقاب ، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور ، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور ، وإن رأى لذة ذكر الجنة ، فهمة متعلقة بما ثم ، وذلك يشغله عن كل ما تم .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نورٌ يدخل القلب .

وقال قتادة : من تفكر في خلق نفسه ، علم أنه إنما خلق ولينت مفاصله .

وقال بعض الحكماء : أحي قلبك بالمواعظ ، ونوره بالفكر ، وموته بالزهد ، وقوه باليقين ، وذلله بالموت ، وقرره بالفناء ، وبصيره فجائع الدنيا .

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال : سبحان الله ! سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل

ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

قال ابن القيم : أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعينك دون ما لا يعينك

• قوله تعالى ( ورضوا بالحياة الدنيا ) ذم لمن رضي بالدنيا واغتر بها واطمأن لها .

قال ابن القيم : وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه .

فقال ( إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) .

وعبر سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين .

فقال ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ) .

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون ثقافله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

ويكفي في الزهد في الدنيا :

قوله تعالى ( أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ) .

وقوله ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) .

وقوله ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ بَلَاغٌ ) .

• فعلى المسلم أن يحذر من التشبه بالكفار بالركون إلى الدنيا والعمل لها ، ويعرف حقيقة الدنيا ، وأنها دار عبور لا دار قرار .

قال تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ) .

وقال تعالى : ( زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْبِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ) .

وقال تعالى ( اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ) .

وقال تعالى ( وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا إِذَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ) .

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه ( يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ) .

وقال القرطبي : متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال رحمته الله (إن هذه الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها... فاتقوا الدنيا...).

وقال رحمته الله (لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال رحمته الله (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه... ) رواه الترمذي.

وكان النبي رحمته الله يستعبد من فتنة الدنيا:

عن مُصْعَبٍ كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِحَمْسٍ وَيَذَكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ رحمته الله أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَعْنِي فِتْنَةَ الدَّجَالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وقال رحمته الله (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال رحمته الله (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي ﷺ (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبغه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم  
**قال النووي** رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال ﷺ لابن عمر (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري .

وفي رواية عند الترمذي ( وعد نفسك من أهل القبور ).

هذه وصية النبي ﷺ لابن عمر، وهي في الواقع وصية له وللأمة من بعده رضي الله عنه وأرضاه، كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور .

**قال النووي** رحمه الله في معنى الحديث ( لا تركزن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه ).

● من أقوال السلف:

قال موسى الكليلاي : الدنيا فنطره فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى الكليلاي لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثّل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

وقد خرج أبو الدرداء على أهل الشام وآهم في ترف فقال لهم: مالي أراكم تجمعون ما لا تأخذون، وتبنون ما لا تسكنون، وتؤمّلون ما لا تأخذون، لقد جمعت الأقوام التي قبلكم وأمتنّ، فما هو إلا قليل حتى أصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، وبيوتهم قبوراً، فجعل الناس ييكون حتى سمع نشيجهم من خارج المسجد.

وقال أبو داود وهو من تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت الإمام أحمد بن حنبل ذكر الدنيا.

وقال: الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، والسير في طلبها كالسير في أرض مسبعة - أي كثيرة السباع - السباحة فيها كالسباحة في غدیر التمساح.

( **أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ** ) أي : مصيرهم ومستقرهم نار جهنم .

( **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ) في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

**الفوائد :**

- ١- كفر من كذب لقاء الله وبالبعث .
- ٢- وجوب الإيمان بلقاء الله وبالبعث والحساب .
- ٣- ذم من رضي بالدنيا وعاش من أجلها .
- ٤- الحذر من فتنة الدنيا وزخرفها .
- ٥- من صفات الكفار العمل للدنيا .
- ٦- ذم من يغفل عن آيات الله المنوعة .
- ٧- الحث على التفكير في آيات الله .
- ٨- أن التفكير في آيات الله سبب في زيادة الإيمان .
- ٩- أن الكفار مأواهم النار بسبب ما كسبت أيديهم من كفر وتكذيب .
- ١٠- أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ) .  
[ يونس : ٩ - ١٠ ] .

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ) هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم. فهم جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

( يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ) يحتمل أن تكون "الباء" هاهنا سببية فتقديره: بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجزوه ويخلصوا إلى الجنة .

● قال السعدي : فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم ( تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ) أي : تجري من تحت قصورهم الأنهار ، أو من تحت أسرقتهم ، وهم مقيمون في جنات النعيم .

● قال السعدي : أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنعيمات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

( دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ) أي : دعآؤهم في الجنة (سبحانك اللهم ) وفي الحديث (يلهمون التسييح والتحميد كما تلهمون النفس ) أي كما يتنفس الانسان بدون تعب ، فكلامهم وذكرهم في الجنة تسييح الله .

( وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ) أي : أَنَّ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ ، أَي يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِذَلِكَ ، وَيُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَتُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِذَلِكَ .

وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى هَذَا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ ، كَقَوْلِهِ ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ، وَقَوْلِهِ ( وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامًا عَلَيْكُمْ ) ، وَقَوْلِهِ ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا آيَةً ) وَقَوْلِهِ ( لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا ) . وَقَوْلِهِ ( سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَمَعْنَى السَّلَامِ : الدُّعَاءُ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَفَاتِ .

وَالْتَحِيَّةُ : مَصْدَرٌ حَيَّاكَ اللَّهُ ، بِمَعْنَى أَطَالَ حَيَاتَكَ .

( وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) أي : وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين .

● والحمد : وصف الحمود بالجميل محبة وتعظيمًا .

● رب العالمين : أي : خالقهم ومالكهم ومدبرهم .

قال ابن كثير : هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو الحمود أبداً، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه

واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيهه، حيث يقول تعالى ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ) ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه الحمود في الأول وفي الآخر، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في جميع الأحوال .

● والله يحمد على كل شيء، ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى يحمد على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه ، وإهانتة لأعدائه ، وصدق ما جاءت به المرسلون .

قال تعالى ( فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) .

● قال بعض العلماء إن هذه الكلمة ( الحمد لله ) كلمة كل شاعر ويدل لذلك :

قول أهل الجنة ( الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ) .

وبقول نوح عليه السلام ( الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ) .

وبقول أهل الجنة أيضاً ( الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ) .

وبقول إبراهيم عليه السلام ( الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ) .

وبقول داود وسليمان عليهما السلام ( الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ) .

الفوائد :

١- فضل الإيمان والعمل الصالح .

٢- يشترط في العمل أن يكون مقبولاً أن يكون صالحاً .

٣- كلما قوي إيمان الشخص كلما ازدادت هداية الله له .

٤- من نعيم الجنة جري الأنهار من تحت قصورهم .

٥- أن في الجنة كل أنواع النعيم .

٦- أن تحية أهل الجنة سلام ، وهم في دار السلام .

٧- أن الله يحمد على كل شيء .

٨- بيان استحقاق الله تعالى للحمد لله .

٩- إثبات الربوبية لله تعالى .

والرب من أسماء الله تعالى ، قال ﷺ ( وأما الركوع فعظموا فيه الرب ) وقال ﷺ ( السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ) .

( وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) (١١) .

[ يونس : ١١ ] .

( وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ) قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في

الشر ، وفيما عليهم فيه مضرة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به لقضي إليهم أجلهم .

● يُعَجِّلُ من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب التعجيل بالشيء .

والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة . وأجل الإنسان هو الوقت المضروب لانتهاه عمره .

● والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين - : المشركون الذي وصفهم الله تعالى قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها.

ولقد حكى القرآن في كثير من آياته ، أن المشركين قد استعجلوا الرسول ﷺ في نزول العذاب . قال تعالى ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَوْ لَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعْتَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ) .

وقال تعالى ( وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) . والمعنى: ولو يعجل الله تعالى هؤلاء المشركين العقوبة التي طلبوها، تعجيلاً مثل استعجالهم الحصول على الخير لُقِضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي: لأميتوا وأهلكوا جميعاً، ولكن الله تعالى الرحيم بخلقه، الحكيم في أفعاله، لا يعجل لهم العقوبة التي طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها فقد يكون من بين هؤلاء المتعجلين للعقوبة من يدخل في الإسلام، ويتبع الرسول ﷺ. ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم ، وأن الآية الكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم.

ومن المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه في تفسيرهم ابن كثير .

● قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضررهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلماذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه - لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لُقِضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك .

● قال السعدي : قوله تعالى ( لُقِضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ) أي: لحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة. ويدخل في هذا، أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلِيم حكيم.

● قال الماوردي : قوله عز وجل ( وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لُقِضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ) فيه وجهان : أحدهما : ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة ، قاله ابن إسحاق.

الثاني : معناه أن الرجل إذا غضب على نفسه أو ماله أو ولده فيدعو بالشر فيقول : لا بارك الله فيه وأهلكه الله ، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب منه الخير لقضي إليهم أي لهلكوا.

فيكون تأويلاً على الوجه الأول خاصاً في الكافر ، وعلى الوجه الثاني عاماً في المسلم والكافر.

● قال القرطبي : فالآية نزلت دامة لخلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر ؛ فلو عجل لهم لهلكوا.

● قال الرازي : ... أنه تعالى سمى العذاب شراً في هذه الآية ، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في قوله : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ) وفي قوله ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) .

( فَتَدْرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) أي : لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون لقاءنا إلى يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدرج في الدنيا في طغيانهم يتحIRON ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من الشر .

أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله، ( فِي طُغْيَانِهِمْ ) أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

( يَعْمَهُونَ ) يترددون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

### الفوائد :

١- رحمة الله ولطفه تعالى بعباده .

٢- أن الله لا يعجل العذاب على الناس لحكمة .

٣- أن الله لو يؤاخذ الناس بأعمالهم لأهلكهم .

٤- أن من أسباب الطغيان عدم الإيمان بلقاء الله .

٥- أن الإيمان بلقاء الله سبب للاطمئنان .

( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنَّمَا يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ) .

[ يونس : ١٢ ] .

-----

( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ) أي : وإذا أصاب الإنسان الضر من مرض أو فقر أو نحو ذلك .

( دَعَانَا ) يألحاح وتضرع لكي نكشفه عنه .

( لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ) أي : دعانا في جميع الحالات : مضطجعا أو قاعداً أو قائماً ، لكشف ذلك الضر عنه .

● قال ابن الجوزي : واللام في قوله ( جنبه ) بمعنى "على" .

● يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله ( وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ) أي: كثير، وهما في معنى

واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال

اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به

من ذلك شيء ( مَرَّ كَأَنَّمَا يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ) .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ) وإنما أراد جميع حالاته ؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه

الحالات الثلاثة.

● وقال الشوكاني : قوله تعالى ( أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ) وكأنه قال : دعانا في جميع الأحوال المذكورة وغيرها ، وخصّ المذكورة

بالذكر؛ لأنها الغالب على الإنسان ، وما عداها نادر كالركوع والسجود ، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا

غير قادر على القعود ، وقاعداً غير قادر على القيام ، وقائماً غير قادر على المشي ، والأوّل : أولى .

● قال الرازي : فإن قالوا : فما فائدة ذكر هذه الأحوال ؟

قلنا : معناه : إن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر ، سواء كان مضطجعا أو قاعداً أو قائماً .

( فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ ) أي : فلما أزلنا ما به من ضر استمر على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وهو عتاب لمن يدعو الله عند الشدة ، ويغفل عنه عند العافية .  
 ( مَرَّكَانٌ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صُرِّ مَسَّهُ ) مضى واستمر في غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كرب ، ولم يسبق له أن دعانا بإلحاح لكشفها .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ ) أي : استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ .

قلت : وهذه صفة كثير من المخلفين الموحدين ، إذا أصابته العافية مرّ على ما كان عليه من المعاصي ؛ فالآية تعم الكافر وغيره .

● قال الشوكاني : وهذه الحالة التي ذكرها الله سبحانه للداعي لا تختص بأهل الكفر ، بل تتفق لكثير من المسلمين ، تدين ألسنهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم . فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم الله بها عليهم ، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ، ودفع ما أصابهم من المكروه . وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ، ولفظ الإنسان ، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التي مننت علينا فيها بإجابة الدعاء ، حتى نستكثر من الشكر الذي لا نطبق سواه ، ولا نقدر على غيره ، وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ( لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ) .

● قال الرازي : المقصود من هذه الآية ، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء ، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء ، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة ، وتبديلها بالنعمة والمنحة ، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر ، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام ، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره ، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تبيهاً على أن هذه الطريقة مذمومة ، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء ، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية .

حتى يكون محاب الدعوة في وقت الخن

( كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) أي : كما زين لذلك الإنسان الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء كذلك زين للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجمام ، ما كانوا يعملونه من الإعراض عن الهدى ، ومتابعة الشهوات .

● قال ابن كثير : فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) وكقول رسول الله ﷺ ( عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له" ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ) .

الفوائد :

١- ذم من يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة .

٢- أن اللائق بحال الكامل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث ( تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ) .

٣- وجوب الرجوع الى الله في الضراء والسراء .

٤- أنه لا يكشف الضر إلا الله .

٥- شدة طغيان ابن آدم حيث ينسى ربه وقت السراء .

( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ) (١٣) .

[ يونس : ١٣ ] .

( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ) أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادوا في الغي والضلال .

فالمراد بالظلم هنا الشرك .

● قال الألوسي : قوله تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ ) مثل قوم نوح. وعاد ، وثمود ، وهو جمع قرن بفتح القاف أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران كأن أهل ذلك الزمان اقتربوا في أعمالهم وأحوالهم ، وقيل : القرن أربعون سنة وقيل : ثمانون وقيل مائة وقيل هو مطلق الزمان ، والمراد هنا المعنى الأول وكذا في قوله ﷺ : " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم " وقوله : إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم...

● قال ابن عطية : هذه الآية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم ، أي كما فعل هؤلاء فعلكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم .

● وقال ابن عاشور : وهذه الآية تهديد وموعظة بما حل بأمثالهم.

( وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ) الواضحات التي تدل على صدقهم .

( وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ) أي : وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي : أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب اهلاكهم شيئا : ظلمهم ، وعدم إيمانهم .

( كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ) أي : مثل ذلك الجزاء - يعني الاهلاك - نجزي كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله ﷺ .

الفوائد :

١- في هذه الآية يخبر الله تعالى أنه أهلك كثيراً من القرى بسبب ظلمهم وشركهم بعدما قامت عليهم الحجة .

وما ذكره الله تعالى هنا من أنه أهلك كثيراً من القرى أخبر به في آيات كثيرة :

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ... ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) .

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) .

قال تعالى (وكم من قرية أهلكناها ... ) .

وأخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم :

كما قال تعالى (كَذَٰبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَآلِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وقال تعالى (فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً) .

وقال تعالى (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ

أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وقال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْحَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٍ. فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ).

وأخبر تعالى أنه لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل :

قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

وأخبر سبحانه أنه يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ :

قال تعالى (فَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ. أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).  
وقال تعالى (فَأَفْضُصَ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَابُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا).

( ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ( ١٤ ) ) .

[ يونس : ١٤ ] .

( ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ) أي : ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة ، من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها .

( لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ) أي لننظر أتعلمون خيراً ام شراً فنجازيكم على حسب عملكم ، قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر اظهارة للعدل .

● قال الرازي : لخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام ، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم ، لننظر كيف تعملون ، خيراً أو شراً ، فعاملكم على حسب عملكم .

● وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة والغرض ان الله تعالى عالم بأعمالهم من قبل ذلك ، ولكن يختبرهم ليتبين في الوجود ، ما علمه تعالى أولاً .

كما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ).

وقال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً).

وقال تعالى (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ).

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).

## الفوائد :

- ١- أن الله قد استخلف الناس في هذه الدنيا للاختبار والابتلاء .  
 فعبادة الله وإحسان العمل هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .  
 كما قال تعالى في أول سورة هود ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ) ثم بيّن الحكمة فقال ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) . ولم يقل أيكم أكثر عملاً .  
 وقال تعالى في أول سورة الكهف ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ) ثم بيّن الحكمة بقوله ( لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) .  
 وقال تعالى في أول سورة الملك ( الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ) ثم بيّن الحكمة فقال ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) .  
 فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وسم .
- ٢- الحكمة من هذه الدنيا الابتلاء والاختبار .
- ٣- وجوب الابتعاد عن الفتن وأسبابها ، وقد جاء في الحديث ( إن السعيد لمن جنب الفتن ) رواه أبو داود .
- ٤- الحرص على الجد والاجتهاد في هذه الدار الفانية بالعمل الصالح .  
 ( وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) فُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ) .  
 [ يونس : ١٥ - ١٦ ] .

( وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ ) أي: وإذا قرئ على مشركي قرآن آيات القرآن واضحات دالات على الحق، قال الذين يكذبون بالبعث، ولا يخافون عقابنا، ولا يطمعون في ثوابنا: أحضر- يا محمد- قرآناً آخر ليس فيه ما نكره من التوحيد، والنهي عن الشرك، وعيب آلهتنا، وذكر البعث والنشور، أو غير هذا القرآن بنفسك على الوجه الذي نحب .

- قال الجزائري : قوله تعالى ( إئت بقرآن غير هذا ) أي بأن يكون خالياً من عيب آلهتنا وانتقاصها . أو أبقه ولكن بدل كلماته بما يسوننا فاجعل مكان آية فيها ما يسوءنا آية أخرى لا إساءة فيها لنا .  
 وقولهم هذا إما أن يكون من باب التحدي ، أو الاستهزاء والسخرية ، وإما أن يكون من باب توهيم أن الرسول ﷺ يأتي به من تلقاء نفسه إلا أن هذا الاحتمال ضعيف .
- قال الماوردي : وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم سألوه الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، قاله ابن جرير الطبري .

الثاني : أنهم سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أعلامهم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : أنه سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور ، قاله الزجاج .

- وقال الجصاص : وَكَانَ سُؤْلُهُمْ لِدَلِكِ عَلَى وَجْهِ التَّعْنُتِ وَالتَّحْكُمِ ؛ إِذْ لَمْ يَجِدُوا سَبَبًا آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ ، وَلَمْ يَجْزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ مَوْفُوقًا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَتَحْكُمِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِالْمَصَالِحِ ، وَلَوْ حَازَ أَنْ يَأْتِيَ بِعَيْرِهِ ، أَوْ يُبَدِّلَهُ بِقَوْلِهِمْ لَقَالُوا فِي الثَّانِي مِثْلَهُ فِي الْأَوَّلِ وَفِي الثَّلَاثِ مِثْلَهُ فِي الثَّانِي فَكَانَ يَصِيرُ دَلَالِيْلُ اللَّهِ تَعَالَى تَابِعَةً لِمَقْاصِدِ السُّفَهَاءِ ، وَقَدْ قَامَتِ الْحُجَّةُ

عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يُفْنِعُهُمْ ذَلِكَ مَعَ عَجْزِهِمْ فَالثَّانِي وَالثَّلَاثُ مِثْلُهُ .

- قال ابن الجوزي : والفرق بين تبديله والإتيان بغيره، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه .  
( قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ) أي: قل لهم يا محمد: ما ينبغي ولا يصح لي أن أغير أو أبدل شيئاً من قبل نفسي .  
( إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ) أي: قل- يا مُحَمَّد- لهؤلاء الكُفَّارِ: إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، لَيْسَ لِي إِلَّا أَنْ أَتَّبِعَ مَا يُوْحِيهِ اللَّهُ إِلَيَّ وَيَأْمُرُنِي بِهِ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَحْرِيفٍ  
( إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ) بتبديل كلامه .

( عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) أي: إني أخشى - إن خالفتُ أمرَ الله، وبدلتُ شيئاً من كتابه- عذابَ يومِ القيامةِ العظيمِ الأهوالِ .

- يوم القيامة يوم رهيب عظيم .

كما قال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ) .

وقال تعالى ( وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) .

- وهذا كالتعليل لما سبق .

( قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ) أي : قل- يا مُحَمَّد- لهؤلاء الكُفَّارِ: لو أراد الله ما تَلَوْتُ عَلَيْكُمْ الْقُرْآنَ؛ فَاللَّهُ وَخَدَهُ هُوَ

الذي أَنْزَلَهُ عَلَيَّ، وَأَمْرُنِي بِتِلَاوَتِهِ عَلَيْكُمْ، فَهُوَ لَيْسَ مِنْ قِبَلِي، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِقُرْآنٍ غَيْرِهِ .

( وَلَا أَذْرَأَكُم بِهِ ) أي: ولو أراد الله لَمَا عَلَّمَكُم بِالْقُرْآنِ، وَلَا أَخْبَرَكُم بِهِ، لَكِنَّهُ أَذْرَأَكُم بِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُونُوا كَذَلِكَ، فَلَوْ كَانَ

كَذِبًا وَافْتِرَاءً كَمَا تَقُولُونَ، لِأَمَكَّنَ لِعَبْرِي أَنْ يَتْلَوْهُ عَلَيْكُمْ، وَتَدْرُونَ بِهِ مِنْ جَهْتِهِ؛ لِأَنَّ الْكَذِبَ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْبَشَرُ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَدْرُوا بِهَذَا مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ تَسْمَعُوهُ مِنْ بَشَرٍ غَيْرِي .

( فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) أي: فقد أقمْتُ فيكم- يا أَهْلَ مَكَّةَ- حيناً طويلاً مِنْ عُمْرِي- أَرْبَعِينَ سَنَةً-

قَبْلَ أَنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ، مَا جَرَّبْتُمْ عَلَيَّ كَذِبًا قَطُّ، تَعْرِفُونَ صَدَقِي وَأَمَانَتِي، وَأَبِي لَسْتُ مِمَّنْ يَقْرَأُ أَوْ يَكْتُبُ، ثُمَّ جِئْتُمْ بِالْقُرْآنِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى .

#### الفوائد :

- ١- مشروعية تلاوة كتاب الله على الناس .
- ٢- أن عدم الإيمان بقاء الله سبب للتكذيب والتعنت .
- ٣- وجوب الإيمان بقاء الله .
- ٤- أن القرآن وحي من الله لرسوله .
- ٥- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يغير شيئاً من القرآن ، لأنه مبلغ عن الله .
- ٦- تخويف العصاة بيوم القيامة وما فيه من شدائد وأهوال .
- ٧- أن يوم القيامة يوم عظيم .

( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ) .  
[ يونس : ١٧ ] .

( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ) يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ( مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا )  
وَتَقُولُ عَلَى اللَّهِ، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا .  
ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتهبه حال هذا بالأنبياء! فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً ، فلا بد أن  
الله ينصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجوره ما وأظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لعنة الله  
لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حُندس الظلماء، فَمِمَّنِ سيما كل منهما وكلامه وفعاله  
يَسْتَدَلُّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العنسي .  
قال عبد الله بن سلام ( لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ابْتَحَلَّ الناس، فكننت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه  
رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول : يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام،  
تدخلون الجنة بسلام ) .

ولما قَدِمَ ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء؟ قال:  
"الله". قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: "الله". قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: "الله". قال: فبالذي رفع هذه السماء،  
ونصب هذه الجبال، وسَطَّحَ هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: "اللهم نعم" ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج،  
والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك  
ولا أنقص .

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه .  
وأما مسيلمة فمن شاهده من دَوي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل  
القييحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة .  
( أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ) وكذلك من كَذَّبَ بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في  
الحديث : أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبياً، أو قتله نبي .  
فالتكذيب بآيات الله عدم تصديقها .

قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ  
وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ) هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مَهَادًا وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الظَّالِمِينَ ) .

● والآية تطلق في القرآن على معنيين:

**الأول** : آيات كونية : ( وهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها ) .

وهي ما نصبه الله - جل وعلا - ليدل به خلقه على أنه الواحد الأحد المستحق للعبادة ، كالشمس والسماء والأرض ونحوها ، وكل ما في الكون من مخلوقات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة .

قال تعالى ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) أي : لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون ، وهو المعبود وحده .

**القسم الثاني** : آيات شرعية ( وهي الوحي المنزل ) .

ومنه قوله تعالى ( رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ ) وقوله تعالى ( هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ) .  
والتكذيب بما بعدم تصديقها .

( إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ) أي : لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجمام ، وكذب الرسل الكرام .

والمجرمون جمع المجرم ، والمجرم مرتكب الجريمة ، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال .

**الفوائد :**

١- أنه لا أظلم ممن كذب الله .

٢- شدة ذنب من كذب على الله .

٣- أن الكذب درجات ، فأعظمه الكذب على الله ، ثم الكذب على رسوله .

٤- ومن أعظم الظلم أيضاً الكذب في آيات الله .

٥- وجوب الإيمان بآيات الله .

( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ( ١٨ ) ) .

[ يونس : ١٨ ] .

( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ) أي : ويعبد المشركون من دُونِ الله آلهة من الأصنام وغيرها ، لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة إن عبدوها ، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك .

● والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع : بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون مثيلاً على الطاعة ومعاقباً على المعصية .

كما قال تعالى ( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ) .

وقال تعالى ( قُلْ أَنْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) .

وقال سبحانه ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ \* وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ) .

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله ، ووصف المدعو من دون الله بأربع أوصاف :

**الأولى :** عدم استحابتهم لهم إلى يوم القيامة .

**الثانية :** أنهم غافلون عن دعائهم ، إما لأنهم أموات ، أو جماد لا إحساس لهم ، أو حي مشغول ، أو ملك لا علم له بمن دعاه  
**الثالثة:** أنهم يكونون أعداءً لمن عبدوهم يوم القيامة.

**الرابعة :** أنهم يبرؤون من عبادتهم وينكرونها .

قال البيضاوي رحمه الله : هذا إنكار أن يكون أحدٌ أضل من المشركين ، حيث تركوا عبادة السميع البصير المحيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم ، فضلاً أن يعلم سرائرهم ، ويراعي مصالحهم .

وقال تعالى ( وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ) .

والقطمير : هو اللغافة التي تكون على نواة التمر ، فنفي الله عنهم ملك شيء حقير ، وهو القطمير ، فأقرب لهم ملك ما فوقه ، والله تعالى له الملك كله .

ففي هذه الآيات يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه . من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها . مما يدل على عجزهم وضعفهم ، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو ، وهي :

الملك ، وسماع الدعاء ، والقدرة على الاستجابة .

فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته ، فكيف إذا عدمت بالكلية .

**فنفي عنهم الملك بقوله ( ما يملكون من قطمير ) [ القطمير : اللغافة التي تكون على نواة التمر ] .**

أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

**ونفي عنهم سماع الدعاء بقوله تعالى ( إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم )** يعني الآلهة التي تدعوها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات ، أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له ، أو جماد .

ولأنه قد يقول المشرك : هذا في الأصنام ، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون .

فنفي سبحانه ذلك بقوله ( ولو سمعوا ما استجابوا لكم ) أي : لا يقدر على ما تطلبونه منكم

وقوله ( ويوم القيامة يكفرون بشرككم ) قال ابن كثير : يتبرؤون منكم .

وقال تعالى ( أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ( ١٩١ ) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ) .

● بين الله تعالى في هذه الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله ، وهي أربعة :

١ . أنهم لا يخلقون شيئاً .

٢ . أنهم مخلوقون مريبون .

٣ . أنهم لا يستطيعون لهم نصراً .

٤ . أنهم لا ينصرون أنفسهم .

وقال تعالى ( قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَاهِرٍ ) .

● يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين على وجه التحدي : اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنها تنفعكم وتكشف الضر عنكم ، فإنهم لا يقدر على ذلك .

لأنه لا بد من توفر أربعة شروط في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه ، وهم :

**الشرط الأول :** الملك .

وقد نفاه الله بقوله ( لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا الأرض ) .

الشرط الثاني : إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك .

وقد نفاه الله بقوله ( وما لهم فيهما من شرك ) .

الشرط الثالث : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك ، فيكون عوناً ووزيراً .

وقد نفاه الله بقوله ( وماله منهم من ظهير ) .

الشرط الرابع : إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً ، فيكون شافعياً .

وقد نفى الله الشفاعة عنده إلا بإذنه .

فبني هذه الأمور بطلت دعوة غير الله ، إذ ليس عند غيره من النفع والضرر ما يوجب قصده بشيء من العبادة .

كما قال تعالى ( واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون . ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً ) .

( وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ) أي: ويقول المشركون: هؤلاء الذين نعبدهم يشفعون لنا عند الله .

والشفعاء : جمع شافع ، وهو من يشفع لغيره في دفع ضرر أو جلب نفع .

أي : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها ، ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعتنا عند الله في دنيانا ، بأن نتوسل إليه بما في إصلاح معاشنا ، وفي آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة .

( قُلْ أَتَسْتَبُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتخبرون الله تعالى بشريك أو شفيع ، كائن في السموات أو الأرض ، لا يعلمه جل وعلا ؟ وهو علام الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم .

ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم فقال :

( سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) أي: تقدس الله وتنزه عن أن يكون له شريك .

الفوائد :

١- تحريم عبادة غير الله من الأصنام وغيرها .

٢- بطلان عبادة الأصنام ، حيث أنها لا تنفع ولا تضر .

٣- أن المستحق للعبادة هو من ينفع ويضر وقادر ، وهذا لا يكون إلا الله تعالى .

٤- ادعاء الكفار أن الأصنام إنما يعبدونها لتكون لهم شفعاء .

٥- الشفاعة لله جميعاً .

٦- تنزيه الله عن كل شرك أو نقص أو عيب .

( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ( ١٩ ) ) .

[ يونس : ١٩ ] .

( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ) المراد بالناس : الجنس البشري كله في جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة . ثم كثروا وتفرقوا وصاروا

شعوباً وقبائل.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة الأصنام.

**قال ابن الجوزي :** شرحنا هذا في سورة [ البقرة : ٢١٣ ] وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحددين ، فاختلّفوا وعبدوا الأصنام ، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام .

قال تعالى في سورة البقرة ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ) .  
قوله ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ) أي : كان الناس على الإيمان والفترة ، وهذا بين آدم ونوح .

● فالمراد بالناس هنا : الذين هم بين آدم ونوح ، فسار هؤلاء على التوحيد من عهد آدم إلى أن انتشر الشرك في عهد نوح ، وهذا قول أكثر المحققين .

قال ابن عباس : كان بين نوح و آدم عشرون قرون كلهم على شريعة من الحق ، فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

● قال ابن الجوزي : قوله تعالى ( كان الناس أمة واحدة ) في المراد ب «الناس» هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : جميع بني آدم ، وهو قول الجمهور .

قال ابن عاشور : والناس : اسم جمع للبشر ، وتعريفه للاستغراق .

والأمة : الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء ما .

والمراد هنا أمة واحدة في الدين .

والسياق يدل على أن المراد أنها واحدة في الدين الحق وهو التوحيد لأن الحق هو الذي يمكن اتفاق البشر عليه لأنه ناشئ عن سلامة الاعتقاد من الضلال والتحريف ، والإنسان لما أنشئ أنشئ على فطرة كاملة بعيدة عن التكلف .

( فَاخْتَلَفُوا ) أي : ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء العقاب .

( وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) أي : ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير القضاء بين الطائعتين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم سبحانه في هذه الدنيا . فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين والعصاة العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه سبحانه اقتضت حكمته عدم تعجيل العقوبة في الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هي دار الجزاء والثواب والعقاب .

والمراد بالكلمة في قوله ( وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ... ) ما قضاه الله تعالى وأراده من تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة .

**الفوائد :**

- ١- أن الناس كانوا على الفطرة والتوحيد .
- ٢- حكمة الله في وجود الاختلاف بين الناس .
- ٣- إثبات الحكمة لله تعالى في كل شيء .
- ٤- حكمة الله في تأخير العقوبات عن العاصين .

( وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ( ٢٠ ) ) .  
[ يونس : ٢٠ ] .

( وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ) أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأتھاراً، ونحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله .

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم .

ومن ذلك قوله تعالى ( وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيَالًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَعِ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِإِقْتِيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ) .

كما حكى أيضاً سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال تعالى إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) .

وقال سبحانه : ( وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ) .

يقول تعالى: إن سئتي في خلقي أي إذا آتيتهم ما سألوها، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين أن يُعطى ما سألوها، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه .

● ومرادهم بالآية التي طلبوها : آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقاة صالح ﷺ أو تكون معه عصا كعصا موسى ﷺ، وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ .

ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت ، قال تعالى ( وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ) .

● قال تعالى إرشادا لنبية إلى الجواب عما سألوها :

( فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ) أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور .

( فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ) أي : إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم.

هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام أعظم مما سألوها حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوها وما لم يسألوا .

ولو علم الله منهم أنهم سألوها ذلك استرشادا وتثبتاً لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتاً، فتركهم فيما راجهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد .

كما قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) .

وقال تعالى ( وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ) .

● والجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم، وتهوينهم من شأن القرآن الكريم، مع أنه أصدق معجزة للرسول ﷺ

وأعظمها.

الفوائد :

- ١- شدة تعنت الكفار وطغيانهم .
- ٢- أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .
- ٣- أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب .
- ٤- وجوب رد علم الغيب لله تعالى .
- ٥- تهديد الكفار بوعيد الله لهم .

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)).

[ يونس : ٢١ ] .

( وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهُمْ ) يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك .

● قال السعدي : ... كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم.

● أسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة، وأسند المساس إلى الضراء، رعاية للأدب مع الله تعالى، لأنه وإن كان كل شيء من عنده، إلا أن الأدب معه سبحانه يقتضى إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما في قوله تعالى: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وفي الحديث : « اللهم إن الخير بيدك والشر ليس إليك ) .

( إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ) أي : يسعون بالباطل، ليبتلوا به الحق.

كما قال ( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ) .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء -مطر- أصابهم من الليل ثم قال: "هل تدرن ماذا قال ربكم الليلة؟" قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِبُؤْسِ بَنَاءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ .

● وسمى سبحانه إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكرًا ، لأنهم كانوا كثيرا ما يتجمعون سرا ، ليتشاوروا في المؤامرات التي يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفي الشبهات التي يوجهونها إلى النبي ﷺ .

( قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ) أي: أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه .

فالمكر السيئ لا يجيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة .

( إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ) أي : والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ، ويحسونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقَطْمِير .

الفوائد :

- ١- حكمة الله بعباده حيث يصيبهم مرة بالضراء ومرة بالسراء .

٢- طغيان ابن آدم وقلة شكره .

٣- وجوب القيام بشكر الله على نعمه وخاصة إذا كانت بعد الضراء .

٤- ذم من لا يشكر نعم الله .

٥- تهديد من لا يشكر نعم الله ، ويقومون بحرب الله .

٦- إثبات الملائكة .

٧- أن من أعمال الملائكة كتابة الأعمال .

٨- لا يخفى شيء على الله .

( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُم بِبُحْرٍ فِي الْأَرْضِ بَغِيرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ) .

[ يونس : ٢٢ - ٢٣ ] .

( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ) أي: هو سبحانه الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرها مما تستعملونه في سفركم، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم.

( حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ) أي: السفن البحرية .

( وَجَرَيْنَ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا ) موافقة لما يهونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

● المراد بالريح الطيبة: الريح المناسبة لسير السفن، والموافقة لا تجاهها.

( جَاءَتْهَا ) أي: تلك السفن .

( رِيحٌ عَاصِفٌ ) أي: شديدة .

( وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ) أي: اغتلم البحر عليهم .

( وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ) أي: هلكوا، أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدَعَوْهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

● أُحِيطَ بِهِمْ، أي: أحاط بهم البلاء من كل ناحية. يقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به.

( دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ) بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت.

أي في تلك الساعات العصبية، واللحظات الحرجة، توجهوا إلى الله وحده قائلين: نقسم لك يا ربنا، ويا من لا يعجزك شيء، لئن أجبتنا من تلك الأحوال التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك، المطيعين لأمرك، المتبعين لشرعك.

أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردون بالدعاء والابتهال .

( لَئِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ ) أي: هذه الحالة .

( لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ) أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا .

( فَلَمَّا أُنجَاهُمْ ) أي : من تلك المصيبة والأزمة .

قال ابن القيم : التوحيد مفرغ أعدائه وأوليائه؛ فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون، وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها ولذلك فرغ إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات، وفرغ إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة، ولما فرغ إليه فرعون عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق له لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل، هذه سنة الله في عباده، فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربيه بالتوحيد فلا يلقى في الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجى منها إلا التوحيد، فهو مفرغ الخليقة وملجؤها وحصنها وغيائها وبالله التوفيق .

#### ● الاخلاص سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

كما في حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة ، فسبب نجاتهم دعوتهم لله تعالى بخالص أعمالهم ، فكان كل واحد منهم يقول (اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ... ) .

#### ● وهو سبب يصرف الفتنة عن القلب .

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل .  
ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠ / ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبها لها .

#### ● وهو أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

#### ● وهو سبب للنجاة من النار .

قال عليه السلام ( فإن الله حرم على النار بيتغي بذلك وجه الله ) .

● قال ابن رجب رحمه الله : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر : أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى ، حصل للعبد الإيأس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد . ( جامع العلوم والحكم ) .

( إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ) أي : كأن لم يكن من ذلك شيء .

كما قال تعالى ( كأن لم يدعنا إلى ضرر مسه ) .

● أي : فحين أُنجاهم الله تعالى بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه ، إذا هم يسعون في الأرض فساداً . ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد .

وقيد البغي بكونه بغير الحق، لأنه لا يكون إلا كذلك، إذا البغي معناه: تجاوز الحق، يقال: بغى الجرح إذا تجاوز حده في الفساد.

فقوله : **بِعَظْرِ الْحَقِّ** تأكيد لما يفيد به البغي من التعدي والظلم ، فهو بغي ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .  
**( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ )** أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم .  
 كما جاء في الحديث: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم" .

**( مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا )** أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة .

أي : واعلموا أن هذا البغي إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا التي لا بقاء لها ، وإنما هي إلى زوال وفناء .  
**( ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ )** أي : مصيركم ومآلكم .

أي : اعلموا كذلك أن مردكم إلينا بعد هذا التمتع الفاني . فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بالجزاء الذي تستحقونه .

**( فَتَنَّاكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )** أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

### الفوائد :

- ١- نعمة الله العظيمة بتيسير السير في البر والبحر .
- ٢- فضل الإخلاص لله ، وأنه سبب للنجاة من الشدائد .
- ٣- أن الإله الحق هو الله .
- ٤- وجوب عبادة الله وحده ، لأنه هو النافع الضار .
- ٥- أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن .
- ٦- ذم من يدعو الله عند الضراء وينساه عند الرخاء .
- ٧- فضل الشكر لله تعالى .
- ٨- أن عدم الشكر لله من صفات الكفار .
- ٩- إيمان الكفار بوجود الله .
- ١٠- شدة طغيان هؤلاء الكفار ، حيث أبجأهم الله ثم بعد ذلك يتكبرون ولا يشكرون .
- ١١- أن بغي الإنسان راجع على نفسه .
- ١٢- أن الدنيا متاع زائل .
- ١٣- إثبات الرجوع إلى الله والبعث والحساب .
- ١٤- أن الله لا تخفى عليه خافية .

( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِّيَتَفَكَّرُوا ( ٢٤ ) .

[ يونس : ٢٤ ] .

( إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أي : صفة الحياة الدنيا ، وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها .

- قال ابن الجوزي : هذا مثل ضربه الله للدنيا الفانية .
- قال السعدي : هذا المثل من أحسن الأمثلة ، وهو مطابق لحالة الدنيا ، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهر لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً ، فإذا استكمل وتم اضمحل ، وزال عن صاحبه ، أو زال صاحبه عنه ، فأصبح صفر اليدين منها ، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها .

( كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ) كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات ، مختلط بعضها ببعض ، قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كل لون .

( مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ) أي : مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والانعام من الكأ والتبن والشعير .  
( حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ) أي : أخذت حسننها وبهجتها .

( وَازْبَيَّتْ ) أي : تزينت بالحبوب والثمار والازهار ، وهو تمثيل لها بالعروس اذا تزينت بالحلي والثياب .

- قال السعدي : أي : تزخرت في منظرها ، واكتست في زينتها ، فصارت بحجة للناظرين ، ونزهة للمتفرجين ، وآية للمتبصرين ، فصرت ترى لها منظرًا عجيبيًا ما بين أخضر ، وأصفر ، وأبيض وغيره .

( وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ) أي : وظن أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصولون لثمرتها وغلقتها .

( أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ) أي : جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات ، إما ليلاً وإما نهاراً .

( فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ) أي : محسودة مقطوعة لا شيء فيها ، كالذي حصد بالمنجل .

( كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ) أي : كأنها لم تكن عامرة قائمة على ظهر الارض قبل ذلك .

( كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِّيَتَفَكَّرُوا ) أي : مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا ، نبين الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال .

- قال الالوسي : وتخصيصهم بالذكر لانهم المنتفعون بالمواعظ .

مباحث :

أولاً : هذا مثل ضربه الله تعالى للدنيا وزينتها وسرعة انقضائها .

- قال ابن القيم : شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزینتها وتعجبه فيميل إليها ويهاها اغتراراً منه بها حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيعتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيحيب ظنه وتصبح يدها صفرًا منها فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء ، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس .

• **وقال ابن عاشور** : شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً.

• **وقال السمرقندي** : ... فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشترى الضياع ويبنى البنيان ، فيظن أنه قد نال مقصده ، فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن أو رجل ولد له مولود ، فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده ، فيموت ويصير كأنه لم يكن.

• **قال ابن عطية** : ومعنى الآية التحذير من الاعتزاز بالدنيا ، إذ هي معرضة للتلف وأن يصيبها ما أصاب هذه الأرض المذكورة بموت أو غيره من رزايا الدنيا ، وخص " المتفكرين " بالذكر تشريفاً للمنزلة وليقع التسابق إلى هذه الرتبة.

ثانياً : وقد ذكر الله تعالى في سورة الكهف :

قال تعالى ( وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ) .

وقال تعالى ( اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ) .

• **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ** : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا فَطُ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ فَطُ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَعُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا فَطُ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ فَطُ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ فَطُ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً فَطُ ) رواه مسلم .

وقال ﷺ ( ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ) رواه الترمذي .

وقال النبي ﷺ ( ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعة في اليم فلينظر بما يرجع ) رواه مسلم .

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه ( يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ) .

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال موسى عليه الصلاة والسلام: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.

وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: من ذا الذي يبني على موج البحار داراً تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقال: مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

ثالثاً : لطيفة في تشبيه الدنيا بالماء:

لأن الماء لا يستقر في موضع، وكذلك الدنيا.

ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفْنَى.

ولأن الماء لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَهُ وَلَا يَبْتَلُ، كذلك الدنيا لا يَسْلُمُ أَحَدٌ دَخْلَهَا مِنْ فِتْنَتِهَا وَأَفْتِهَا.

ولأن الماء إذا كان بَقْدَرٍ كَانَ نَافِعًا مُنْبِتًا، وَإِذَا جَاوَزَ الْمِقْدَارَ، كَانَ ضَارًّا مُهْلِكًا، وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر.

ولأن الماء مَهْمَا حَاوَلَتْ أَنْ تَمْسُكَه بِكَفِّكَ، تَفَلَّتْ مِنْكَ، وكذلك الدنيا مَهْمَا حَرَصْتَ عَلَيْهَا وَتَشَبَّثْتَ بِهَا، فَلَا بَدَّ أَنْ تَفُوتَكَ.

رابعاً : ذكر فريق من أهل العلم بعض الحكيم من تشبيه الحياة الدنيا بالزرع:

أحدها: أن عاقبة الاعتزاز بالدنيا، وما يبذله المرء لأجل تحصيلها، كعاقبة النبات؛ حيث علق صاحبه على جني محصوله أملاً

كبيراً، لكن سرعان ما خاب أمه، لما نزل بمحصوله من الهلاك؛ وهذا الغالب على المتمسك بالدنيا، واللاهث وراء مكاسبها، أن يأتيه الموت من حيث لا يحتسب. وهو معنى قوله تعالى ( حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ) .

**ثانيها:** أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه ( وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ) أي: كما صار سعي هذا الزارع هشيماً تذروه الرياح، بسبب حدوث الآفات المهلكة، فكذلك سعي المعتز بالدنيا، لا جدوى منه ولا فائدة .

**ثالثها:** أن الزارع لما أتعب جسمه، وكد نفسه، وعلق قلبه؛ أملاً في الانتفاع بزعره، وطمعاً في جني محصوله؛ فإذا حدث ما أهلك زعره، وذهب به، حصل له من الشقاء والحسرة الكثير؛ فكذلك حال من أسلم قلبه للدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، إذا مات، وفاته كل ما ناله منها، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سبباً لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة .

**خامساً:** وقد تضمن هذا المثل القرآني بعض اللطائف :

منها : أن التمتع في هذا الحياة الدنيا، إنما هو لفترة قصيرة محدودة، ثم هو صائر إلى زوال؛ وعلى العاقل أن لا يعتر بما هو زائل وفان، وأن يسعى لتحصيل ما هو دائم وبق .

ومنها : أن انقضاء الدنيا سريع ومفاجئ ويكون من غير سابق إنذار، فإن الإنسان لا يدري، متى ينقضي أجله في هذه الحياة، ومتى يصبح في عداد الموتى، بعد أن كان يشكل رقماً فوقها؛ وهكذا سنة الحياة، لا تعرف كبيراً ولا صغيراً، ولا غنياً ولا فقيراً، ولا حاكماً ولا محكوماً، ولا عالماً ولا جاهلاً، فالكل في قانون الموت سواء ( فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون )

**سادساً:** في قوله تعالى ( حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ) بيان لسبب اغترار كثير من الناس بهذه الحياة الدنيا، حتى تصيح الحياة الدنيا - بمغرياتها ولذاتها وشهواتها - همهم الوحيد؛ فشبهها سبحانه الأرض بالعروس التي تُزفُّ إلى زوجها ليلة العرس، بعد أن تكون قد تزينت له أجمل زينة، وتهيأت له أفضل ما يكون التهيؤ؛ وهكذا الدنيا تتزين لأهلها وطالبيها غاية التزين؛ بحيث تكون أشد إغراء لأهلها، وأكثر إغواء لطالبيها، فيتهافتون على النيل من زخرفها، ويتسابقون إلى الأخذ من نعيمها ما أمكنهم .

**الفوائد :**

- ١- تحقير الله للدنيا .
- ٢- سرعة زوال الدنيا وانقضائها .
- ٣- من أكبر عيوب الدنيا سرعة انقضائها .
- ٤- أنه على العاقل أن يعمل بالدنيا للآخرة الباقية .
- ٥- الحذر من فتنة الدنيا .
- ٦- على العاقل أن يتأمل ويتدبر آيات القرآن الكريم التي تبين حقيقة الدنيا وأنها دار عبور لا دار مستقر .

( وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) ) .

[ يونس : ٢٥ ] .

( وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ) معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إثارة متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله تعالى يدعو الناس جميعاً إلى الإيمان الحق الذي يوصلهم إلى دار كرامته .

والمقصود بدار السلام: الجنة التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، وسميت بذلك، لأنها الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة. أو لأن تحيتهم فيها سلام، أو لأن السلام من أسماء الله تعالى فأضيفت إليه تعظيماً لشأنها، وتشريفاً لقدرها، كما يقال للكعبة: بيت

الله.

سميت بذلك: لأنها الدار التي سلمت من كل آفة وبليّة ومكروه وكدر وهم وغم.

● قال ابن الجوزي: وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال:

أحدها: أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي.

والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج.

والثالث: أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، ففي ابتداء دخولهم (ادخلوها بسلام) وبعد استقرارهم (والملائكة يدخلون عليهم من

كل باب سلام عليكم) وقوله (إلا قليلاً سلاماً سلاماً) وعند لقاء الله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (تحيتهم يوم يلقونه

سلام).

وقال ابن القيم: ... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها

وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليكم

من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم).

● وللجنة أسماء:

أولاً: الجنة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار ، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور.

قال تعالى (سُنْدِحِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

وقال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

ثانياً: دار السلام.

فهي السالمة من كل بلية وآفة ومكروه.

قال تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُسَبِّحُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ثالثاً: دار الخلد.

وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً كما قال تعالى (عطاء غير مجدود).

قال تعالى (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا).

رابعاً: دار المقامة.

لأنهم مقيمون بها أبداً ، لا يموتون ولا يتحولون منها أبداً.

قال تعالى حكاية عن أهلها (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ).

خامساً: جنة المأوى.

قال تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

سادساً: جنات عدن.

أي جنات إقامة ، يقال عَدَنَ بالمكان أي أقام به.

قال تعالى (جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا).

وقال تعالى (وَمَسَاكِينٍ ظِئْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

سابعاً: دار الحيوان.

أي هي الدار التي لا تنغيص فيها ولا نفاذ ، ولا تنفي ولا تنقطع.

قال تعالى (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

ثامناً: الفردوس.

والفردوس: اسم من أسماء الجنة ومعناه: البستان الذي يجمع كل ما فيه البساتين.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا).

( وَيُهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) أي : والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم

بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين .

والصراط المستقيم هو الإسلام .

● قال ابن الجوزي : واعلم أن الله عمَّ بالدعوة ، وخصَّ بالهداية من شاء ، لأن الحكم له في خلقه.

● قوله تعالى ( من يشاء ) فيه إثبات المشيئة لله ، وليعلم أن كل شيء علَّقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة ، أي : أنه

ليست مشيئة الله مجردة هكذا تأتي عفواً ، لا ، هي مشيئة مقرونة بالحكمة ، والدليل على ذلك ، قوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ) فلما بيّن أن مشيئتهم بمشيئة الله ، بيّن أن ذلك مبني عن علم وحكمة .

الفوائد :

١- أن الهداية بيد الله .

٢- استحباب طلب الهداية من الله وفي الحديث القدسي ( فاستهدوني أهدكم ) .

٣- إثبات مشيئة الله .

( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا ) .

[ يونس : ٢٦ ] .

( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ) أي : أحسنوا في عبادة ربهم ، وأحسنوا إلى الخلق بكل أنواع الإحسان .

الإحسان نوعان:

إحسان في عبادة الخالق، إحسان إلى المخلوق.

في عبادة الله، إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة للرسول ﷺ، كما قال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وقال

تعالى (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ).

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

● قال السعدي: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرهما النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والديني إليهم، ودفع الشر الديني والديني عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده. (تفسير السعدي)

( الْحُسْنَى ) وهي الجنة .

( وَزِيَادَةٌ ) النظر إلى وجه الله الكريم .

عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ( إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ - قَالَ - فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ آيَةَ (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

• قال ابن رجب : قوله تعالى ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ) ، وقد ثبت في " صحيح مسلم " عن النبي ﷺ تفسيرُ الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل في الجنة ، وهذا مناسبٌ لبعده جزاءً لأهل الإحسان ؛ لأنَّ الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الكفار في الآخرة ( إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ) ، وجعل ذلك جزاءً لحلمهم في الدنيا ، وهو تراكم الزان على قلوبهم ، حتى حُجِبَتْ عن معرفته ومراقبته في الدنيا ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُجِبُوا عن رؤيته في الآخرة .

( وَلَا يَرَهُنَّ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ) أي : قتام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة .

( وَلَا ذَلَّةٌ ) أي : هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر .

كما قال تعالى في حقهم ( فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ) أي : نضرة في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم .

• قال السعدي : أي: لا ينالهم مكروه، بوجه من الوجوه، لأن المكروه، إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر. وأما هؤلاء فهم كما قال الله عنهم ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ) .

• قال الرازي : واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات ، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها ، فقال ( وَلَا يَرَهُنَّ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذَلَّةٌ ) والمعنى : لا يغشاها قتر ، وهي غبرة فيها سواد ( وَلَا ذَلَّةٌ ) ولا أثر هوان ولا كسوف.

فالصفة الأولى : هي قوله تعالى ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ) .

والصفة الثانية : هي قوله تعالى ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ) والغرض من نفي هاتين الصفتين ، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم ، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات ، وإنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غير صفحة الوجه ، وينزل ما فيها من النضارة والطلاقة ، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع.

( أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ) الملازمون لها .

( هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) لا يحولون ولا يزلون، ولا يتغيرون.

الفوائد :

١- فضل الإحسان وعلو منزلته ، وأن من فضائله دخول الجنة ، ورؤية وجهه الكريم .

● وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل. كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون

● فضائل الإحسان:

أولاً: أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه.

قال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان).

ثانياً: لهم في الدنيا حسنة.

قال تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة).

ثالثاً: رحمة الله قريبة من المحسنين.

قال تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين).

رابعاً: لهم الجنة ونعيمها.

قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

خامساً: تبشير المحسنين.

قال تعالى (وبشر المحسنين).

سادساً: أن الله معهم.

قال تعالى (وإن الله لمع المحسنين).

سابعاً: إن الله يحب المحسنين.

قال تعالى: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين).

ثامناً: إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قال تعالى (إن الله لا يضيع أجر المحسنين).

٢- من فضائل الإحسان دخول الجنة .

٣- إثبات رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة .

٤- من تمام نعيم أهل الجنة أنه لا يصيبهم أي أذى أو مكروه .

( وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ مِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ( ٢٧ ) .

[ يونس : ٢٧ ] .

( وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ مِثْلِهَا ) أي : والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي لهم جزاء السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة .

● قال ابن كثير : لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك . ( انتهى ) .

كما قال تعالى ( مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) .

وقال تعالى ( وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ) .

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه، تبارك وتعالى، قَالَ (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ) .

● فائدة: قوله ﷺ في حديث ابن عباس السابق (وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً) أي: من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة إذا كان تركها من خشية لله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي). ومثل قصة الذي هم بابنة عمه بسوء فتركها لله، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة.

● فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها، فهذا يعاقب كمن عمل، فتكتب عليه سيئة.

قال الشيخ ابن عثيمين: من هم بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه).

● وقوله ( السيئات ) جمع سيئة ، سميت سيئة لأنها تسوء صاحبها في الدنيا وفي الآخرة ، في الدنيا بظهور آثارها عليه من الهم والضيق في الصدر والخلق والرزق ، فيفقد من السعادة في الحياة بقدر ما عمل من السوء ، قال تعالى ( فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ ) وقال تعالى ( أَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ) . وتسوؤه أجلاً بعد موته لمعاقبته عليها إن لم يتب منها أو يتداركه الله بعفوه .

وربما تسوء غيره بأن يتعدى ضررها إلى الغير مباشرة، أو بأن يكون لها أثرها السيء على البلاد والعباد عامة بحق البركات وقلة الخيرات، كما قال تعالى (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقال ﷺ (ما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء) رواه ابن ماجه .

● والسيئات في الأصل تطلق على الكبائر والصغائر ، قد يراد بها الصغائر إذا قرنت مع الكبائر كما في قوله تعالى (إِنْ جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) .

( وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ) أي: تعزيهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها .

كما قال تعالى ( وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ) .  
وقال تعالى ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ \* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ \* وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ) .  
( مَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ) أي: من مانع ولا واق يقيهم العذاب .  
كما قال تعالى ( يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيُّنَ الْمَقَرِّ \* كَلَّا لَا وَزَرَ \* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ) .  
( كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ) إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة .  
كما قال تعالى ( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .  
وكما قال تعالى ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ ) .  
● بين في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة كسب السيئات .

وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر بعد الإيمان .  
وذلك في قوله ( فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ) الآية .  
وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على الله :  
وهو قوله تعالى ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ) .  
وبين في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور :  
وهو قوله تعالى ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ ) .  
وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبر عنه بعبارات مختلفة ، وهو الكفر بالله تعالى ، وبين في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون وهو قوله ( وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ) وأقبح صورة أن تكون الوجوه مسوداً والعيون زرقاً .  
( أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) تقرير لمصيرهم والعياذ بالله وهو ملازمة النار وعدم الخروج منها بخلودهم فيها .

#### الفوائد :

- ١- بيان عاقبة السيئة وما تورثه من ذل وهوان وحسرة .
  - ٢- بيان عدل الله بعباده ، حيث أن من عمل سيئة فعقوبتها سيئة من غير مضاعفة .
  - ٣- أن الكفر سبب للذل .
  - ٤- تهديد للكفار ، وأنه لا عاصم ولا منقذ من أمر الله .
  - ٥- من صفات الكفار يوم القيامة اسوداد الوجه .
- ( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ) .  
[ يونس : ٢٨ - ٣٠ ] .

( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ) أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن وبر وفاجر .  
كما قال ( وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) .

● في هذا إثبات الحشر والجمع يوم القيامة.

والحشر ثابت بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ).

وقال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

وقال تعالى (وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي دَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وقال تعالى (مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

وقال ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عقرها كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد) متفق عليه.

● ويحشر كل شيء حتى البهائم ، ودل على حشر البهائم عدة أدلة:

أ- قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

ب- قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

ج- وحديث أبي ذر (أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا ، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د- وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه

هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها: كوني تراباً ، فتكون تراباً ، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً).

● كيف يحشر الناس؟

يحشرون حفاة عراة غرلاً.

لحديث عائشة. قالت: قال رسول الله ﷺ : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قالت: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال (إنكم تُحشرون حفاة عراة غرلاً ، ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه.

حفاة: جمع حاف وهو من ليس عليه نعال.

عراة: جمع عار وهو من ليس عليه ثياب.

غرلاً: أي غير مختونين.

● أول من يكسى إبراهيم.

لقوله ﷺ (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام).

والحكمة في ذلك:

قيل: لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه.

وقيل: لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر.

وقيل: أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة ، وهذا أحسنها.

● أرض المحشر الشام.

عن سهل بن سعد. قال: قال رسول الله ﷺ: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري.

عفراء: أي ليس بياضها ناصع. ... كقرصة النقي: الدقيق الخالص من الغش.

ليس فيها معلم لأحد: أي: شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء.

( ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ) أي : ثم نقول للمشركين منهم في هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاءه فيكم .

● قال أبو السعود : قوله تعالى ( ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ) أي نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رؤوس الأشهاد أفضح والإخبار بحشر الكل في تحويل اليوم أدخل ، وتخصيص وصف إشراكهم بالذكر في حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتفريع عليه مع ما فيه من الإيدان بكونه معظم جنائهم وعمدة سيئاتهم .

( فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ ) أي : ففرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا .

كما قال تعالى ( وَأَمْتَأَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ) .

وقال ( وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ) .

وفي الآية الأخرى ( يُومِّدُ يَصَدِّعُونَ ) أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء ، ولهذا قيل: ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريجنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: "نحن يوم القيامة على كؤم فوق الناس .

● قال السعدي : أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضًا وعداوة.

● فزيلنا : من التزييل بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشيء أزيله إذا نحته وأبعدته ، ومنه قوله تعالى: ( لَوْ تَرَىٰ أُولَٰئِكَ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ) أي : لو تميزوا وتفرقوا.

( وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ ) المراد بالشركاء كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك.

أي : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم في العبادة مع الله تعالى: إنكم أيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين في الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم فانقدتم له بدون تدبر أو تعقل.

والمقصود بقولهم هذا ؛ التبري من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة.

● قال الشوكاني : والمعنى : وقد قال شركاؤهم الذين عبدوهم وجعلوهم شركاء لله سبحانه ما كنتم إيانا تعبدون، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم، وشياطينكم الذين أغووكم، وإنما أضاف الشركاء إليهم مع أنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، لكونهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فهم شركاؤهم في أموالهم من هذه الحيثية. وقيل: لكونهم شركاؤهم في هذا الخطاب، وهذا الجحد من الشركاء وإن كان مخالفاً لما قد وقع من المشركين من عبادتهم، فمعناه إنكار عبادتهم إياهم عن أمرهم لهم بالعبادة.

● اختلفوا في المراد بمؤلاء الشركاء.

فقال بعضهم : هم الملائكة .

واستشهدوا بقوله تعالى ( يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْمُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ) .

ومنهم من قال : بل هي الأصنام ، والدليل عليه : أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد ، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين ، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام .

فقال بعضهم : إن الله تعالى يخلق الحياة والعقل والنطق فيها ، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام .

وقال آخرون إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام ، وهو ضعيف ، لأن ظاهر قوله : ( وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ) يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء .

والقول الثالث : إن المراد بمؤلاء الشركاء ، كل من عبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وأنسي وجني وملك .

● قال الشوكاني : والمراد بالشركاء هنا : الملائكة . وقيل الشياطين ، وقيل الأصنام ، وإن الله سبحانه ينطقها في هذا الوقت . وقيل : المسيح ، وعزير ، والظاهر أنه كل معبود للمشركين كائناً ما كان .

قال الخازن : قوله ( وقال شركاؤهم ) يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم ، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله : مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب ( ما كنتم إيانا تعبدون ) تبرأ المعبدون من العابدين .

فإن قلت : كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها؟

قلت : يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام .

● وقال الألوسي : والمراد بمؤلاء الشركاء قيل : الأصنام فإن أهل مكة إنما كانوا يعبدونها وهم المعنيون بأكثر هذه الآيات ، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه فينطقها الله الذي أنطق كل شيء في ذلك الموقف فتقول لهم ( مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ) والمراد من ذلك تبريهم من عبادتهم وأنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم الداعية لهم وما أعظم هذا مكان الشفاعة التي كانوا يتوقعونها منهم .

وقيل : المراد بهم الملائكة والمسيح عليهم السلام .

لقوله تعالى ( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْمُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ) وقوله سبحانه : ( وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) .

● قال الرازي : قوله تعالى ( وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ) إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه :

الأول : أنهم جعلوا نصيباً من أموالهم لتلك الأصنام ، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال ، فلهذا قال تعالى : ( وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ ) .

الثاني : أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق ، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة ، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم . الثالث : أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله : ( مَكَانَكُمْ ) صاروا شركاء في هذا الخطاب .

( فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ) أي : تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ، فهو سبحانه يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا في غفلة عن عبادتكم لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها .

إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ) أي : ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، لأننا كنا جماداً لا روح فينا .

● قال السعدي : فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إليهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واطماحت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

● المعبودون يتبرؤون من عابديهم .

قال تعالى ( إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ) .

أي : ( إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ) تبرأ الذين عبدوا من دون الله كالأوثان والملائكة والجن والشيطان والرؤساء وعليه عليه السلام ، فكل من عُبد من دون الله يتبرأ من عابديه ( مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ) أي : من أتباعهم .

فالملائكة تتبرأ : كما قال تعالى ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِنِّي كُنْتُ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ) .

وكذلك الشيطان يتبرأ من تابعيه : : كما قال تعالى عنه ( وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .

وكذلك الأوثان تتبرأ من عابديها : قال تعالى ( وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ) .

والجن تتبرأ منهم ويتصلون من عبادتهم لهم : كما قال تعالى ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ) . [ بعض العلماء حمل هذه الآية على أن المعبودين من دون الله هم الجن ] .

وقال تعالى ( وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ) أي : سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم .

وقال الخليل لقومه ( وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ) .

وكذلك الجبابرة والرؤساء والظلمة يتبرأون : قال تعالى ( وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتُكْبِرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتُكْبِرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لَأَخُنُّ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ) .

( هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ) أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من]

خير وشر .

كما قال تعالى ( يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ) .

وقال تعالى ( يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) .

وقال تعالى ( وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ) .

● قال الشنقيطي : وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ «تَلُو» بِتَاءٍ فِي مَعْنَى الْآيَةِ وَجَهَانِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا تُتْلُو بِمَعْنَى تَقْرَأُ فِي كِتَابِ أَعْمَالِهَا جَمِيعَ مَا قَدَّمْتُ ، فَيَرْجِعُ إِلَى الْأُولَى .

وَالثَّانِي : أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَتَّبِعُ عَمَلَهَا ، لِقَوْلِهِ ﷺ ( لَتَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُهُ فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ ) الْحَدِيثُ .

( وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ) أي: رد لخلائق كلهم إلى يوم القيامة فيحكم بينهم بعدله .

كما قال تعالى ( قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ) .

وقال تعالى ( وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) .

( مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ) أي: خالقهم وراقهم وباعثهم ومالكهم (الحق) الذي لا شك فيه ، فلا شك في وجوده ، ولا يسع أحداً إنكاره

لظهور دلائل إثباته ، فهو سبحانه حق في ذاته ، حق في صفاته ، حق في أقواله ، حق في أفعاله ، كامل الصفات والنعوت ،

فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والكمال والجمال موصوفاً .

ولهذا قال تعالى ( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ) .

وفي الحديث كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجّد قال (اللهم لك الحمد ، ... أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ،

وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ... ) متفق عليه .

● والمراد بالولاية هنا العامة ، لأن الولاية تنقسم إلى قسمين:

ولاية عامة: بمعنى أن يتولى شؤون عباده ، وهذا للكفار والمؤمنين .

ودليلها قوله تعالى في سورة الأنعام ( ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ) .

وقوله تعالى كما في هذه الآية ( وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ) .

ولاية خاصة ، وهذه للمؤمنين .

كما قال تعالى ( اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ) .

وقال تعالى ( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ) .

مقتضى النوع الأول: أن الله تعالى كمال السلطان ، والتدبير في جميع خلقه .

ومقتضى النوع الثاني: الرأفة ، والرحمة ، والتوفيق .

( وَضَلَّ عَنْهُمْ ) أي: ذهب عن المشركين .

( مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ) أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

الفوائد :

١- إثبات الحشر يوم القيامة .

٢- أن الحشر لجميع الخلائق .

٣- بيان تبرؤ ما عبّد من دون الله من عابديه .

٤- يوم القيامة تعلم كل نفس ما أسلفت وما قدمت من خير أو شر .

( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) .

[ يونس : ٣١ - ٣٣ ] .

( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ) يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله فقال :

قل -أيها الرسول- هؤلاء المشركين: من يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبت فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟

• قال ابن عاشور: تذكير بأحوال الرزق ؛ ليكون أقوى حضوراً في الذهن ، فالرزق من السماء المطر ، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلاً.

• قال ابن كثير : أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيبته، فيخرج منها ( حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْثُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ) ، إله مع الله؟ فيقولون: الله ( أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ) ؟

( أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ) أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بما ولسلبكم إياها، كما قال تعالى ( قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ) .

وقال ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ) .

• قال أبو حيان : ثم ذكر ملكه لهاتين الحاستين الشريفتين : السمع الذي هو سبب مدارك الأشياء ، والبصر الذي يرى ملكوت السموات والأرض ، ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وإذهاب .

• وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما قد اشتملتا في تركيبهما على ما بهر العقول، ويشهد بقدرته تعالى وعجيب صنعه في خلقه .

• قال الشوكاني : وَخَصَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الصَّنْعَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الْعَظِيمَةِ، أَي: مَنْ يَسْتَطِيعُ مَلَكُهُمَا وَتَسْوِيَّتَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْخَلْقَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى يَنْتَفِعُوا بِهَئَا هَذَا الْإِنْتِفَاعِ الْعَظِيمِ، وَيُحْصِلُونَ بِهَئَا مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْحَاصِرِينَ

( وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة .

وهذا دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته.

أي: وقل لهم كذلك من سوى الله- تعالى- يملك إخراج النبات وهو كائن حي من الأرض الميتة، وإخراج الإنسان وهو كائن حي من النطفة وبالعكس، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس.

• قال القرطبي : أي النبات من الأرض ، والإنسان من النطفة ، والسُّبُّبَةُ من الحَبَّة ، والطير من البيضة ، والمؤمن من الكافر.

• قال الرازي : قوله تعالى ( وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) وفيه وجهان :

الأول : أنه يخرج الإنسان والطيَّار من النطفة والبيضة ( وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطيَّار.

والثاني : أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والأكثر من على القول الأول ، وهو إلى الحقيقة أقرب ،

وقال الشوكاني : قوله تعالى ( وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ) الْإِنْسَانَ مِنَ النَّطْفَةِ، وَالطَّيْرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالنَّبَاتَ مِنَ الْحَبَّةِ، أَوْ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ ( وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) أَي: النَّطْفَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ، أَوْ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْإِسْتِفْهَامِ: عَمَّنْ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ .

● وقال السعدي : قوله تعالى ( وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ) كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطيائر من البيضة، ونحو ذلك ( وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ) عكس هذه المذكورات .

( وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ) أَي : وَمَنْ يَدَبِّرُ أَمْرَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَأَمْرِكُمْ وَأَمْرَ الْخَلِيقَةِ جَمِيعًا؟

● وهذا دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أي: وقل لهم- أيضا- من الذي يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وإماتة، وصحة ومرض، وغنى وفقير، وليل ونهار، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها.

● قال ابن كثير : أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ( يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ) فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه .

( فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ) أَي : فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله ، أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به .

( فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ) أَي: أفلا تحافون منه أن تعبدوا معه غيره بأرائكم وجهلكم؟ .

أي: أتعلمون وتعترفون بأن الله تعالى هو الخالق لكل ما سبق، ومع ذلك تشركون معه آلهة في العبادة، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة .

إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف في التفكير، وانطماس في العقول، وجهالة ليس بعدها جهالة.

قال الشنقيطي : صرَّحَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، بِأَنَّ الْكُفَّارَ يَقْرُونَ بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا ، هُوَ رَبُّهُمْ الرَّزَّاقُ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي اعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَمَعَ هَذَا أَشْرَكُوا بِهِ جَلَّ وَعَلَا .  
وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُقْرُونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ ذَلِكَ لِإِشْرَاكِهِمْ مَعَهُ غَيْرُهُ فِي حُقُوقِهِ جَلَّ وَعَلَا - كَثِيرَةٌ ، كَقَوْلِهِ ( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ) .

وَقَوْلِهِ ( وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ) .

وَقَوْلِهِ ( قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ : فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَلِذَا قَالَ تَعَالَى ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ) .

وَالْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الْإِعْتِرَافَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَكْفِي فِي الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَعْيًا وَإِثْبَاتًا .

وَأَمَّا بِجَاهِلٍ فِرْعَوْنَ - لَعَنَهُ اللهُ - لِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا ، فِي قَوْلِهِ ( قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ) فَإِنَّهُ بِجَاهِلٍ عَارِفٍ ؛ لِأَنَّهُ عَبْدٌ مَرْئُوبٌ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاتِرٍ ) وَقَوْلِهِ ( وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ) .

( فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ) أَي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء .

وقد جاء في الحديث : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ( كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ ( ... ) .

والحقُّ اسمٌ لله سبحانه هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْوُجُودِ الدَّائِمِ وَالْحَيَاةِ وَالْقِيُومِيَّةِ وَالْبَقَاءِ، فَلَا يَلْحَقُهُ زَوَالٌ أَوْ فَنَاءٌ، وَكُلُّ أَوْصَافِ الْحَقِّ كَامِلَةٌ لِلْكَمَالِ وَالْجَمَالِ، وَالْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ، قَالَ سبحانه وتعالى: ( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ) [الحج: ٦٢]، وَكَقَوْلِهِ: ( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .

يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رحمه الله تَعَالَى: " الْحَقُّ " فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ، كَامِلُ الصِّفَاتِ وَالنُّعُوتِ، وَوُجُودُهُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ، وَلَا وُجُودَ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِهِ، فَهُوَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ وَالْكَمَالِ مَوْصُوفًا، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِالْإِحْسَانِ مَعْرُوفًا.

فَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَفِعْلُهُ حَقٌّ، وَلِقَاؤُهُ حَقٌّ، وَرُسُلُهُ حَقٌّ، وَكُتُبُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ هُوَ الْحَقُّ، وَعِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الْحَقُّ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَهُوَ حَقٌّ.

( فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ) أي: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له.

أي: فذلكم الذي فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم، هو الله المرئي لكم بنعمه، وهو الذي لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده.

إذا كان الأمر كذلك فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؛ أي لا يوجد غير الحق شيء يتبع سوى الضلال، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده، فقد وقع في الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى.

( فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ) أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء؟

● قال السعدي: ( فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ) عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتبا لمن أشرك به، وويحًا لمن كفر به، لقد عدموا عقولهم، بعد أن عدموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

( كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ) الكاف للتشبيه بمعنى مثل. وحقت بمعنى وجبت وثبتت.

والمراد بالكلمة هنا: حكمه وقضاؤه سبحانه .

والمعنى: مثل ما ثبت أن الله تعالى هو الرب الحق، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، ثبت أيضاً الحكم والقضاء منه سبحانه على الذين فسقوا عن أمره، وعموا وضموا عن الحق، أنهم لا يؤمنون به، لأنهم إن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً.

فالمراد بالفسق هنا: التمرد في الكفر، والسير فيه إلى أقصى حدوده.

● قال ابن كثير: أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده؛ فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله ( قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ) .

الفوائد:

١- أن الرازق هو الله .

٢- أنه ينبغي طلب الرزق ممن يملكه وهو الله .

٣- أن طلب الرزق من الله يكون بأمرين :

الأول : بسؤال الله ذلك .

والثاني : فعل الأسباب التي تجلب الأرزاق .

كصلة الأرحام - وتقوى الله - والتوكل على الله .

٤- يجب معرفة نعمة السمع والبصر .

٥- أن شكر نعمة السمع والبصر يكون بطاعة الله وبعدم معصيته .

٦- آية من آيات الله العظيمة وهي إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي .

٧- أن الكفار يقرون بتوحيد الربوبية ، لكن لا يكفي ذلك حتى يقروا بتوحيد الألوهية .

٨- أن الإله الحق هو الله .

٩- أن كل آله غير الله فهو باطل .

١٠- كل شيء وكل عمل لغير الله فهو باطل .

( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ) . [ يونس : ٣٤ - ٣٦ ] .

( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله ( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أي : قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتفريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشئ الخلق من العدم ثم يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟

( قُلِ اللَّهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) هو الذي يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له .

قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ...

● قال السعدي : ( قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) من غير مشارك ولا معاون له على ذلك.

قال الشنيطي : أَلْقَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ حَجْرًا ، بَأَنَّ الشُّرَكَاءَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِهِ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ بِالْإِحْيَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَأَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . وَصَرَخَ بِمِثْلِ هَذَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ :

كَقَوْلِهِ ( اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ) .

وَقَوْلِهِ ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ) .

وَقَوْلِهِ ( أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ) .

وَقَوْلِهِ ( قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِحَاتُ حَرِّهِ ) .

وَقَوْلِهِ ( أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يُرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ) .

وَقَوْلِهِ ( إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ) .

وَالآيَاتُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَسْوِيَةَ مَا لَا يَصُرُّ ، وَلَا يَنْفَعُ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مَعَ مَنْ بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ الْمُتَصَرِّفِ بِكُلِّ مَا شَاءَ ، لَا تَصُدُّرُ إِلَّا بِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ ذَلِكَ ( وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ) .

● قال الشوكاني : هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُ هُوَ نِيَابَةٌ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَوَابِ :

إِنَّمَا: عَلَى طَرِيقِ التَّلْقِينِ لَهُمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ كَيْفَ يُجِيبُونَ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا يَقُولُونَ .

وَإِنَّمَا: لِيَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ بَلَغَ فِي الْوُضُوحِ إِلَى غَايَةِ لَا يُخْتَّجُ مَعَهَا إِلَى إِقْرَارِ الْخُصْمِ، وَمَعْرِفَةِ مَا لَدَيْهِ .

وَإِنَّمَا: لِيَكُونَ الْمُشْرِكِينَ لَا يَنْطَفُونَ بِمَا هُوَ الصَّوَابُ فِي هَذَا الْجَوَابِ فِرَارًا مِنْهُمْ عَنْ أَنْ تَلْزِمَهُمُ الْحُجَّةُ، أَوْ أَنْ يُسَجَّلَ عَلَيْهِمْ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ إِنْ حَادُوا عَنِ الْحَقِّ .

( فَأَيُّ تَوْفُكُونَ ) أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

والمعنى : وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور فَأَيُّ تَوْفُكُونَ والإفك الصرف والقلب عن الشيء. يقال: أفكه عن الشيء يأفكه أفكاً، إذا قلبه عنه وصرفه.

أي فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر؟!.

● وجعل سبحانه إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التذليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها، للإيدان بسطوع أدلتها، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال تعالى ( وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) .

فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة، نزل إنكارهم لها منزلة العدم

( قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ) توبيخ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين : هل من هذه الآلهة التي

تعبدونها من يرشد ضالاً؟ أو يهدي حائراً؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة؟ فينزل كتاباً، أو يرسل رسولاً، أو

يشرع شريعة، أو يضع نظاماً دقيقاً لهذا الكون. أو يحث العقول على التدبر والتفكير في ملكوت السموات والأرض ...؟

( قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ) أي : قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يفعل كل ذلك، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً

من ذلك أو من غيره.

● قال ابن كثير : أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من

الغي إلى الرشد لله، الذي لا إله إلا هو.

● قال الشوكاني : وَهَدَايَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ إِلَى الْحَقِّ هِيَ: بِمَا نَصَبَهُ لَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِرْسَالِهِ لِلرُّسُلِ، وَإِنزَالِهِ

لِلْكِتَابِ، وَخَلْفِهِ لِمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْعِبَادُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ.

● وقال السعدي : ( قُلِ اللَّهُ ) وحده ( يَهْدِي لِلْحَقِّ ) بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

( أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ) أي : أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحق

بالإتباع ، أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها؟

كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال ( يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ) .  
وقال لقومه ( أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ) إلى غير ذلك من الآيات .

● **قال البغوي :** إن قيل: كيف قال: "إلا أن يهتدي"، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يهتدي؟.

قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتفال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتُنقل، يتبين به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المحازر، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبّر عنها بما يعبر عمن يعلم ويعقل، ووُصفت بصفة من يعقل.

( فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) أي: فما بالكم يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

● قوله تعالى ( فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) استفهام قصد به التعجب من أحوالهم التي تدعو إلى الدهشة والغرابة.

أي: ما الذي وقع لكم، وما الذي أصابكم في عقولكم حتى صرتم تشركون في العبادة مع الله الخالق الهادي، مخلوقات لا تهدي نفسها وإنما هي في حاجة إلى من يخلقها ويهديها.

● **قال الرازي :** واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً ثم بالهداية ثانياً ، عادة مطردة في القرآن، فقد حكى سبحانه عن إبراهيم أنه ذكر ذلك فقال ( الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) .

وعن موسى أنه قال ( رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ) .

وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال ( سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ) .

وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية، فهاهنا أيضاً لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى وهو قوله ( مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية .

● **وقال الشوكاني :** وَالْإِسْتِدْلَالُ بِالْهُدَايَةِ بَعْدَ الْإِسْتِدْلَالِ بِالْخَلْقِ وَقَعَ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وَقَوْلِهِ: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) .

( وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ) توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون، وتسليية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من إساءات. أي: إن هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوتك يا محمد، لا يتبعون في عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون والأوهام التي ورثها الأبناء عن الآباء.

● **قال البغوي :** ( وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ) مِنْهُمْ، يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ، وَإِنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ، لَمْ يَرِدْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ، وَأَزَادَ بِالْأَكْثَرِ: جَمِيعٌ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ .

● وخص أكثرهم بالذكر، لأن هناك قلة منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم لا يتبعونه عناداً وجروراً وحسداً ، كما قال تعالى ( فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ) .

ويجوز أن يكون سبحانه خص أكثرهم بالذكر، للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق، وستتبعه في الوقت الذي يريد الله تعالى.

( إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ) أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً. وقيل: لا يقوم مقام العلم .

( إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

## الفوائد :

- ١- آية من آيات الله وهو الخلق والإماتة والبعث .
- ٢- إثبات البعث .
- ٣- أن المستحق للعبادة هو من يخلق ويهدي .
- ٤- ذم من لا يتأمل ويتفكر في الآيات والمعجزات .
- ٥- عموم علم الله تعالى .
- ٦- تهديد الكفار بأن عليهم بهم وسيجازيهم على عملهم .

( وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) )  
[ يونس : ٣٧ ] .

( وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ) وما كان يتهدى لأحد أن يأتي بهذا القرآن من عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق .

فليس من شأن هذا القرآن المعجز، أن يخترعه أو يختلقه أحد من الإنس أو الجن أو غيرها لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغة وتشريعات حكيمة، وآداب قويمه، وهدايات جامعة ... يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر.

● قال ابن كثير : هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله تعالى الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ .

● قال الشوكاني : أي: وَمَا صَحَّ وَمَا اسْتَقَامَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُشْتَمَلُ عَلَى الْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ، وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ يُفْتَرَى مِنَ الْخَلْقِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُفْتَرَى، وَقَدْ عَجَزَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْهُ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ أَفْصَحُ الْعَرَبِ لِسَانًا وَأَدْقُهُمْ أَذْهَانًا .

( وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ) أي : ولكن الله أنزله مصدقاً للكتب التي أنزلها على أنبيائه؛ لأن دين الله واحد .

ومراد بالذي بين يديه: الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزيور.

وقوله ( بَيْنَ يَدَيْهِ ) فيه نوع مجاز لأن ما بين يدي الشيء يكون أمامه، فوصف سبحانه ما مضى من الكتب بأنها بين يدي القرآن لشدة ظهورها واشتهارها .

ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة: تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله تعالى، ومن أمر باتباع الرسول ﷺ عند ظهوره.

● وتصديق القرآن للكتب السابقة من وجهين :

الوجه الأول: أنه حاكماً لها بالصدق، أي: حكم بأنها صدق من عند الله عز وجل.

الوجه الثاني: أنه صدقها لأنها أخبرت به فوق مصداقاً لها، فإن الكتب السابقة أخبرت بهذا القرآن، وأن سينزل، ووصفت النبي ﷺ الذي سينزل عليه بأوصافه التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.

● قال ابن كثير: وكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله.

● قال الرازي: قوله ( ولكن تصديق الذي بين يديه ) وتقرير هذه الحجة من وجوه:

أحدها: أن محمداً ﷺ كان رجلاً أمةً ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه ﷺ أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملاً على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقييح صورته، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه ﷺ إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى.

الحجة الثانية: أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى ( وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ) وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد ﷺ تصديقاً لما في تلك الكتب، من البشارة بحجيته ﷺ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

الحجة الثالثة: أنه ﷺ أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر، كقوله تعالى: (الم غُلِبَتِ الرُّومُ) الآية، وكقوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) وكقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْاَرْضِ) وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلية، إنما حصل بالوحي من الله تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه، فالوجهان الأولان: إخبار عن الغيوب الماضية والوجه الثالث: إخبار عن الغيوب المستقبلية، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

قال الشوكاني: وَنَفَسُ هَذَا التَّصْدِيقِ مُعْجَزَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ، لِأَنَّ أَقَاصِيصَهُ مُوَافِقَةٌ لِمَا فِي الكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ وَلَا تَعَلَّمَهُ وَلَا سَأَلَ عَنْهُ وَلَا اتَّصَلَ بِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِذَلِكَ،

وَتَفْصِيلُ الكِتَابِ ( أي: وفي هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد ﷺ، لا شك في أن هذا القرآن موحى من رب العالمين.

أن يكون مفصلاً وموضحاً لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام.

● والتفصيل: التبيين أي: يُبَيِّنُ مَا فِي كُتُبِ اللَّهِ المُتَقَدِّمَةِ، والكتاب: للجنس، وقيل: أراد ما بُيِّنَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَحْكَامِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالكِتَابِ: الْقُرْآنَ .

● قال ابن عاشور: والظاهر أن تعريف الكتاب تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلها.

ومعنى كون القرآن تفصيلاً لها أنه مبين لما جاء مجملاً في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للناس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضل بها أهل الكتاب، فكل ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله تعالى (ومهيماً عليه) في سورة العقود .

( لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ) أي: هذا الكتاب لا ريب ولا شك في كونه منزلاً على رسوله محمد ﷺ من الله تعالى رب العالمين .

الريب هو الشك مع القلق فهو أخص من الشك .

- فالقرآن لا شك ولا ريب أنه موحى من عند الله ، كما قال تعالى ( تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ) .
- والقرآن لا شك أنه يبعث على عدم الريب والشك .
- والقرآن لا شك ولا ريب أنه واقع موقعه .
- والقرآن لا يتضمن أموراً تبعث على الريب والشك .
- والقرآن لا يوجد فيه متناقضات .
- والقرآن لا ريب فيه وإن ارتاب فيه المرتابون .

- قال الشيخ السعدي : لا ريب فيه : ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين، المنزل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة : أن النفي المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه .
- فيه دليل على أنه لا ينبغي للمسلم أن يرتاب في هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة .

- هذا التنويه بهذا القرآن في كماله وعدم تناقضاته يستوجب حمد الله تعالى ( الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ) .

( رَبِّ الْعَالَمِينَ ) الرب هو المالك المتصرف المعبود المدير لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

- قال السعدي : ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

- قال الشيخ السعدي رحمه الله : وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة :

فالعامة : هي خلقه للمخلوقين ، ورزقهم ، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا .

- والخاصة : تربيته لأوليائه ، فيربيهم بالإيمان ، ويوفقهم له ، ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف ، والعوائق الحائلة بينهم وبينه ، وحقيقتها : تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر .

- العالمين : اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال :

وقيل : كل موجود سوى الله ، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير .

وقيل : أهل كل زمان عالم لقوله تعالى ( أتأتون الذكرا من العالمين ) أي من الناس .

وقيل : الجن والإنس ، لقوله تعالى ( ليكون للعالمين نذيراً ) .

وقيل : العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين .

- والصحيح الأول ، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ، ودليله قوله تعالى ( قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما ) .

- العالمين : جمع عالم :

وقيل : مأخوذ من العلامة ، لأنهم علم على خالقهم وصانعهم ، وهذا هو الصحيح

فإن هذا الخلق في كل فرد منه ، وفي جزء منه ، آية تدل على وحدانية الله وعلى عظمتة وعلى انفراده بالملك .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحده الجاحدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحدٌ

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ) .

وسئل بعض الأعراب عن وجود الله فقال : إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ،

وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ألا يدل على وجود اللطيف الخبير .

جسمك وروحك فيه من الآيات ما يبهر العقول .

وقيل : مأخوذ من العلم ، لأن هذا الخلق لا يصدر إلا عن علم ومعرفة بأحوالهم .

● **العالمين** : تطلق أحياناً ويراد به الإنس والجن :

كما قال تعالى ( تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ) .

وأحياناً تطلق على البشر :

كقوله تعالى ( أتأتون الذكوان من العالمين ) .

● قال بعض العلماء : واعلم أن تربيته تعالى مخالفة لتربية غيره ، وبيانه من وجوه :

**الأول** : أنه تعالى يربي عبده لا لغرض نفسه ، وغيره يربون لغرض أنفسهم لا لغرض غيرهم .

**الثاني** : أن غيره إذا ربي فبقدر تلك التربية يظهر النقصان في خزائنه وفي ماله وهو متعال عن النقصان والضرر ، كما قال تعالى :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) .

**الثالث** : أن غيره من المحسنين إذا ألح الفقير عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والحق تعالى بخلاف ذلك ، كما قال ﷺ : ( إن الله

تعالى يحب الملحين في الدعاء ) .

**الرابع** : أن غيره من المحسنين ما لم يطلب منه الإحسان لم يعط ، أما الحق تعالى فإنه يعطي قبل السؤال ، ألا ترى أنه رباك حال

كنت جنيناً في رحم الأم ، وحال ما كنت جاهلاً غير عاقل ، لا تحسن أن تسأل منه ، ووقاك وأحسن إليك مع أنك ما سألته

وما كان لك عقل ولا هداية .

**الخامس** : أن غيره من المحسنين ينقطع إحسانه إما بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت ، والحق تعالى لا ينقطع إحسانه البتة .

**السادس** : أن غيره من المحسنين يختص إحسانه بقوم دون قوم ولا يمكنه التعميم ، أما الحق تعالى فقد وصل تربيته وإحسانه إلى

الكل ، كما قال : ( وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ) .

**الفوائد** :

١- أنه لا يمكن لهذا القرآن أن يكون من بشر .

٢- وجوب الإيمان بأن هذا القرآن كلام رب البشر .

٣- لا أحد يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن .

٤- أن القرآن مصدق للكتب السابقة .

٥- أن هذا القرآن لا ريب فيه أنه من رب العالمين .

٦- أن التمسك بالقرآن يدعو إلى الثبات والبصيرة والاطمئنان .

٧- إثبات ربوبية الله تعالى .

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ( ٣٨ ) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ( ٣٩ ) ) .  
[ يونس : ٣٨ - ٣٩ ] .

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ) بل أيقولون: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم .  
( قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) أي : قل لهم: يا محمد على سبيل التبكيت والتحدي: إن كان الأمر كما زعمتم من أني أنا الذي اختلقت هذا القرآن، فأتوا أنتم يا فضحاء العرب بسورة مثل سورة في البلاغة والهداية وقوة التأثير، وقد أبحث لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم في بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله تعالى .  
وجاءت كلمة ( سورة ) منكورة، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.  
والضمير في ( مثله ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير .

وكلمة مَنِ فِي قوله ( مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ ) تشمل أهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

● وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه :

تحداهم أن يأتوا بقرآن بمثل هذا القرآن :

قال تعالى ( فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ) وقال تعالى ( قُلْ لَّيِّنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ) .

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

قال تعالى ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) .

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله :

كما في هذه الآية .

وفي قوله تعالى ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) وقوله ( وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ ) قيل : أعوانكم ونصراءكم ، وقيل : أهلكم ، وقيل : اتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه .

وهذا غاية التحدي لهم . وهذا كما يقول المعجز المتحدي لمن عانده وتحدها : اذهب واث بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم .

● قال ابن كثير : ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، ... فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال تعالى ( وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .

● فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه ، كما قال تعالى ( لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيراً) أي معيناً .

( بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ) أي : بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه .

قال الشوكاني : وَهَكَذَا صَنَعَ مَنْ تَصَلَّبَ فِي التَّقْلِيدِ وَلَمْ يَبَالِ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ وَتَمَسَّكَ بِذُبُولِ الْإِنْصَافِ، بَلْ يَرُدُّهُ بِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ لَمْ يُؤَافِقْ هَوَاهُ، وَلَا جَاءَ عَلَى طَبَقِ دَعْوَاهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَعْنَاهُ، وَيَعْلَمَ مَبْنَاهُ، كَمَا تَرَاهُ عَيَانًا، وَتَعْلَمُهُ وَجَدَانًا. وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِالْحُجَّةِ النَّبِيَّةِ وَالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ قَبْلَ أَنْ يُحِيطَ بِعِلْمِهِ، فَهُوَ لَمْ يَتَمَسَّكَ بِشَيْءٍ فِي هَذَا التَّكْذِيبِ إِلَّا مُجَرَّدَ كَوْنِهِ جَاهِلًا لِمَا كَذَّبَ بِهِ غَيْرُ عَالِمٍ بِهِ، فَكَانَ بِهَذَا التَّكْذِيبِ مُنَادِيًا عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَهْلِ بِأَعْلَى صَوْتٍ، وَمُسَجِّلاً بِقُصُورِهِ عَنِ تَعَقُّلِ الْحُجَجِ بِأَبْلَغِ تَسْجِيلٍ، وَلَيْسَ عَلَى الْحُجَّةِ وَلَا عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا مِنْ تَكْذِيبِهِ شَيْءٌ:

مَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ .

● قال ابن عاشور : والمعنى أنهم سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه.

وإنما يكون مثل هذا التكذيب عن مكابرة وعداوة لا عن اعتقاد كونه مكذوباً.

( وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ) أي : والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد .

● قال الماوردي : قوله تعالى ( وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ) فيه وجهان :

أحدهما : علم ما فيه من البرهان .

الثاني : ما يؤول إليه أمرهم من العقاب .

قال الشوكاني : وَالْمَعْنَى: أَنَّ التَّكْذِيبَ مِنْهُمْ وَقَعَ قَبْلَ الْإِحَاطَةِ بِعِلْمِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ مِنْ صِدْقٍ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ حِكَايَةِ مَا سَلَفَ مِنْ أَحْبَارِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْأُمَمِ السَّابِقِينَ، وَمِنْ حِكَايَاتِ مَا سَيَحْدُثُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ الَّتِي أَحْبَرَ عَنْهَا قَبْلَ كَوْنِهَا، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمُوا حَقَّ الْفَهْمِ وَتَتَعَقَّلَهُ عَقُولُهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ كَلِيَّةَ التَّدَبُّرِ لَفْهَمُوهُ كَمَا يَنْبَغِي، وَعَرَفُوا مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الدَّالَّةِ أَبْلَغَ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَعَلَى هَذَا: فمعنى: تأويله، ما يؤول إليه لمن تدبره من المعاني الرشيقة واللطائف الأنيقة .

● وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن ( من جهل شيئاً عاداه ) قال نعم ، في موضعين : " بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ " وقوله ( وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْفِكٌ قَائِمٌ ) . ( تفسير القرطبي ) .

( كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ) أي : مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم

أي: كما كذب المشركون نبيهم محمداً ﷺ عن جهل وجمود: كذب الذين من قبلهم أنبياءهم، كقوم نوح وعاد وثمود، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أحذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) .

● وقال الشوكاني : أي: مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم من الأمم عند أن جاءتهم الرسل بحجج الله وبراهينه، فَإِنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ تَأْوِيلُهُ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ بِالْحَسْفِ، وَالْمَسْخِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِهِمْ، كَمَا حَكَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ كُتُبُ

اللَّهُ الْمُنَزَّلُ عَلَيْهِمْ .

● قال ابن عاشور : ومما يقصد من هذا التشبيه أمور :

أحدها : أن هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت الرسل فيعتبروا بذلك .

الثاني : التعريض بالندارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها .

الثالث : تسلية النبي ﷺ بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم .

( فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ) أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلواً، وكفرا وعنادًا وجهلاً فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

الفوائد :

١- إعجاز هذا القرآن .

٢- عظمة القرآن حيث تحدى الله كفار قريش أن يأتيوا بمثله .

٣- وجوب العناية بالقرآن حفظاً وتدبراً وفهماً .

٤- أن من أعظم آيات النبي ﷺ هذا القرآن العظيم .

٥- لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن .

٦- ذم من لا يتأمل ويتثبت .

٧- أن كثيراً من الأمم كذبت رسلها .

٨- على المسلم أن ينظر بعينه وبقلبه ما وقع للأمم المكذبة من عقاب الله .

٩- فضل الاعتبار والتفكير في آيات الله المتنوعة .

( وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ( ٤٠ ) )

[ يونس : ٤٠ ] .

-----

( وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ ) أي : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به، ومنهم من لا يؤمن به أبداً لاستحبابه العمى على الهدى .

وعليه يكون المراد بمن يؤمن به، أولئك الذين وفقهم الله لا تباع الحق عن يقين وإذعان .

وقيل : إن المعنى ، ومن قومك يا محمد أناس يؤمنون في قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله، ولكنهم يكذبونك جحوداً وعناداً ، ومنهم من لا يؤمن به أصلاً ، لانطماس بصيرته، وإيثاره الغي على الرشد .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به: أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه .

( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ) أي : وربك أعلم بالمفسدين في الأرض بالشرك والظلم والفجور، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حساباً عسيراً ، ويذيقهم العذاب الذي يستحقونه، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب .

● قال ابن كثير : أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به، ( وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ) بل يموت على ذلك ويبعث عليه ( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ) أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو .

## الفوائد :

- ١- حكمة الله في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر .
  - ٢- الناس إذا جاءهم الرسول يدعوهم انقسموا إلى فريقين ، مصدق ومكذب .
  - ٣- تهديد لكل مفسد .
  - ٤- علم الله الكامل بالمفسدين ، وسيجازيهم على ذلك .
- ( وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ) .
- [ يونس : ٤١ ] .

( وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي ... ) إرشاد من الله تعالى لنبيه ﷺ إذا ما استمر أعداؤه في طغيانهم .

أي : وإن تبادى هؤلاء الأشرار في طغيانهم وفي تكذيبهم لك يا محمد، فقل لهم: أنا مسئول عن عملي أمام الله، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه سبحانه، وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه، وأنا بريء كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها .

فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه . وإعلام له بأن وظيفته البلاغ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله تعالى .

● قال ابن كثير : يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبتك هؤلاء المشركون، فتراهم منهم ومن عملهم فقل لي عملي ولحكم عملكم ، كقوله تعالى ( قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ \* لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ \* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ \* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ \* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ \* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلي دِين ) .

وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين ( إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ) .

● قال الشنقيطي : أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَنْ يُظْهِرَ الْبِرَاءَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الْفَيْحَةِ إِنْكَارًا لَهَا ، وَإِظْهَارًا لِحُجُوبِ التَّبَاعِدِ عَنْهَا .

وَبَيَّنَ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ ( قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - إِلَى قَوْلِهِ : وَلي دِين ) . وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَأَتْبَاعِهِ لِقَوْمِهِ ( إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) .

وَبَيَّنَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ اعْتِزَالَ الْكُفَّارِ ، وَالْأَوْثَانَ ، وَالْبِرَاءَةَ مِنْهُمْ مِنْ فَوَائِدِهِ تَفَضُّلُ اللَّهِ تَعَالَى بِالذَّرِيَّةِ الطَّيِّبَةِ الصَّالِحَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي «مَرِّم» (فَلَمَّا اعْتَرَضَهُمْ وَمَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) .

## الفوائد :

- ١- تسلية للرسول ﷺ .
- ٢- تعليم الله لنبيه ﷺ الرد على هؤلاء المكذبين .
- ٣- تسلية لكل داعية إلى الحق إذا كذب من قبل الناس ، فإن الرسل قبله قد كذبوا .
- ٤- وجوب البراءة من المشركين .
- ٥- قوة النبي ﷺ في الصدق بالحق .
- ٦- أن الرسول مهمته التبليغ ، والهداية بيد الله .

( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) ) .  
[ يونس : ٤٢ - ٤٤ ] .

( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ) أي: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأبدان والأديان، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكنهم لا يهتدون.

( أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ) أفأنت تقدر على إسماع الصم؟ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله هدايتهم؛ لأنهم صم عن سماع الحق، لا يعقلونه.

● قال السعدي : فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذوبون، كذلك ممتنع إسماعك إياهم، إسماعاً ينتفعون به.

وأما سماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخير .

( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ) أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوءتك لأولي البصائر والنهي، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم .

● أي : ومن الكفار من ينظر إليك وإلى أدلة نبوتك الصادقة، ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان .

( أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ) أفأنت تقدر على أن تخلق للعمي أبصاراً يهتدون بها؟ فكذلك لا تقدر على هدايتهم إذا كانوا فاقدي البصيرة، وإنما ذلك كله لله وحده.

● قال ابن كثير : ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار ( وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا \* ) إِنَّ كَادَ لِيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ) .

● فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من قومه. وإعلام له بأن وظيفته البلاغ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله تعالى .

● قال السعدي : ودل قوله ( وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ) الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ) وذلك لكمال عدله ، فلا ينقصون من حسناتهم ، ولا يزداد عليهم في السيئات، ولا يعاقبون بظلم غيرهم .

قال تعالى ( وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ) . ظلماً: أي: زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات.

قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ) .

كما قال تعالى ( ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ) فلا ينقص من ثوابهم شيئاً، ولا يزداد في عذابهم، ولا يعاقبون بجريرة غيرهم.

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا) أي: زيادة في السيئات (ولا هضمًا) أي نقصاً في الحسنات.

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وقال تعالى (وَلَا تُظَلَّمُونَ فِتْيَانًا) أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، والفتيل: هو الخيط الذي يكون في بطن النواة. قال تعالى (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا).

● فالله عز وجل لا يظلم أحداً لكمال عدله لا لعجزه عن الظلم.

( وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ) بالكفر والمعاصي والتكذيب ومخالفة أمر الله تعالى .

الفوائد :

١- أن الهداية بيد الله .

٢- أن من لم يرد الله هدايته ، فلن يهتدي ولو رأى من الآيات الشيء الكثير .

٣- أن في النظر إلى النبي ﷺ وسماع حديثه من أعظم الآيات التي تدل على صدقه .

٤- أن العمى عمى البصيرة لا البصر .

٥- تنزيه الله عن الظلم لكمال عدله .

٦- أن من أنواع الظلم ظلم العبد نفسه بالمعاصي والتكذيب .

( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) ) .

[ يونس : ٤٥ ] .

( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) ويوم يحشر الله هؤلاء المشركين يوم البعث والحساب، كأنهم قبل ذلك لم يمكثوا في الحياة الدنيا إلا قدر ساعة من النهار، يعرف بعضهم بعضاً كحالهم في الدنيا .

● قال ابن كثير : يقول تعالى مُذَكِّرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أحداثهم إلى عَرَصات القيامة: كأنهم يوم يوفونها لم يلبثوا في الدنيا ( إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ) .

كما قال تعالى ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ نَّهَارٍ .... ) .

كما قال تعالى ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ) .

وقال تعالى ( يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا \* يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا \* نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ) .

وقال تعالى ( وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ \* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ) .

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال ( قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ \* قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ \* قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) .

وقوله: ( يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه .

( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ) .

وقال تعالى ( وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا \* يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ \* وَفَصَّلَتْهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ \* وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ \* كَلَّا ) .

● قال ابن القيم : ويكفي في الزهد في الدنيا :

قوله تعالى ( أفأريت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون ) .

وقوله ( ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ) .

وقوله ( كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ) .

وقوله تعالى ( كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها ) .

وقوله ( ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ) .

وقوله ( قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .

● قال القرطبي: قوله تعالى ( يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) هذا التعارف توبيخ وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني

وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف ... والصحيح أنه لا ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة

أحوال القيامة، لقوله تعالى ( وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ... ) ، فأما قوله ( وَلَا

يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ) وأشباهه فمعناه: لا يسأله سؤال رحمة وشفقة...

قال الشنقيطي : ... وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّ هَذِهِ الْمُعَارَفَةَ لَا أَتْرُهَا ، فَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا شَيْئًا ، كَقَوْلِهِ ( وَلَا يَسْأَلُ

حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبْصِرُونَهُمْ ) وَقَوْلِهِ ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ) .

فإن قيل: إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عند ما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا في الدنيا يوماً أو بعض يوم، أو عشية أو

ضحاحا كما في قوله تعالى ( قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) .

وكما في قوله تعالى ( كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ) .

فكيف نجتمع بين هذه الآيات التي اختلفت إجاباتهم فيها؟.

فالجواب: أن أهل الموقف يختلفون في تقدير الزمن الذي لبثوه في الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم، وعلى حسب أحوال كل

موقف، فإن في يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض.

( قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ) قد خسر الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله وثوابه وعقابه، وما كانوا موقنين

لإصابة الرشد فيما فعلوا.

● قال الشنقيطي : وَقَدْ أَقْسَمَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ هَذَا الْحُسْرَانَ لَا يَنْجُو مِنْهُ إِنْسَانٌ إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ :

الْأَوَّلُ : الْإِيمَانُ .

الثَّانِي : الْعَمَلُ الصَّالِحُ .

الثَّالِثُ : التَّوَّاصِي بِالْحَقِّ .

الرَّابِعُ : التَّوَّاصِي بِالصَّبْرِ .

وَدَلِّكَ فِي قَوْلِهِ : وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ ...

وَبَيَّنَّ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى أَنَّ الْمُنْعُولَ الْمَحْدُوفَ الْوَاقِعَ عَلَيْهِ الْحُسْرَانُ هُوَ أَنْفُسُهُمْ، كَقَوْلِهِ فِي «الْأَعْرَافِ» ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الْمُؤْمِنُونَ» ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ) .

وَقَوْلِهِ فِي «هُودٍ» ( أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ) .

وَزَادَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ خُسْرَانَ الْأَهْلِ مَعَ النَّفْسِ ، كَقَوْلِهِ فِي «الرُّمْرِ» : كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ) .

وَقَوْلِهِ فِي «الشُّورَى» ( وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ) .  
وَبَيَّنَّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ خُسْرَانَ الْخَاسِرِينَ قَدْ يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ :

وَهُوَ قَوْلُهُ ( وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ) .

### الفوائد :

١- إثبات الحشر .

٢- أن الكفار يوم القيامة يظنون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا لحظات .

٣- شدة ندم الكفار على تضييع الحياة الدنيا .

٤- خطر التكذيب بالحشر والمعاد .

٥- الحث على التزود في هذه الدنيا بالأعمال الصالحة ، فهي قصيرة زائلة .

٦- شدة حسارة من كذب بقاء الله .

٧- وجوب الإيمان باليوم الآخر .

( وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) )

[ يونس : ٤٦ ] .

( وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ) أي : إمَّا نُرِيَنَّكَ -أيها الرسول- في حياتك بعض الذي نَعِدُهُمْ من العقاب في الدنيا .

( أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ) أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم .

( فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ) فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالتين .

● قال القرطبي : والمقصود إن لم تنتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً .

( ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ) أي : ثم الله شهيد على أفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم بها جزاءهم الذي يستحقونه .

وقوله سبحانه (بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) للإشارة إلى أن ما ينزل بهم من عذاب دنيوي، هو جزء من العذاب المدخر لهم في الآخرة .

● وقد أنجز الله تعالى وعده لنبيه ﷺ فسلط عليهم القحط والمجاعة، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخاناً . ونصر المسلمين عليهم في غزوتي بدر والفتح، وكل ذلك حدث في حياة النبي ﷺ .

هذا، وفي معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها :

قوله تعالى ( وَإِنَّ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ، فَإِمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ) .

وقوله تعالى ( فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ) .

## الفوائد :

- ١- تسليية الله لرسوله ﷺ ، بأنه سيعاقب أعداءه .
  - ٢- تسليية لكل داعية صادق ، بأن الله سينتصر له ولدعوته .
  - ٣- أن الرسول يموت كما يموت البشر .
  - ٤- أن المرجع إلى الله .
  - ٥- تهديد لكل مكذب وظالم أن المرجع إلى الله .
  - ٦- أن الله لا يخفى عليه شيء .
- ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) )  
[ يونس : ٤٧ ] .

( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ) أي : ولكل أمة خلقت قبلكم -أيها الناس- رسول أرسلته إليهم، كما أرسلت محمداً إليكم يدعو إلى دين الله وطاعته .

● قال الشنقيطي : صرَّحَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ، وَبَيَّنَّ هَذَا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ) .

وَقَوْلِهِ ( وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ) .

وَقَوْلِهِ ( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَقَدْ بَيَّنَّ ﷺ أَنَّ عَدَدَ الْأُمَمِ سَبْعُونَ أُمَّةً فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْفُسَيْرِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ» .

( فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) أي : فإذا جاء رسولهم في الآخرة قُضِيَ حينئذٍ بينهم بالعدل، وهم لا يُظلمون من جزاء أعمالهم شيئاً.

● قال ابن كثير : فكل أمة تعرض على الله تعالى بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم، وحفظتهم من

الملائكة شهد أيضاً أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل

بينهم ويقضى لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم

قبل الخلائق، فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها- صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

## الفوائد :

- ١- إثبات الرسل .
- ٢- إثبات أن لكل أمة رسول أرسله الله إليها .
- ٣- رحمة الله بعباده بإرسال الرسل .
- ٤- حكمة الله في إرسال الرسل للناس .
- ٥- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين .
- ٦- أن أول الرسل نوح ، وآخرهم محمد ﷺ .
- ٧- إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة .

- ٨- أن كل رسول شاهد على قومه يوم القيامة .  
 ٩- أن الله يقضي بين الناس يوم القيامة بالقسط .  
 ١٠- نفي الظلم عن الله تعالى لكمال عدله .

فائدة :

أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان :

- أ- بمعنى الطائفة.  
 كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ...).  
 ب- بمعنى الإمام.  
 كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا).  
 ج- بمعنى الملة.  
 كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ...).  
 د- بمعنى الزمن.  
 كما قال تعالى (وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ...).  
 ( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) ) .  
 [ يونس : ٤٨ ] .

( وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) حكاية لأقوالهم الدالة على طغيانهم وفجورهم.

أي : أن هؤلاء لم يكنفوا بالإعراض عن دعوة الحق، بل قالوا لرسولهم ﷺ الذي حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا في كفرهم: متى يقع علينا هذا العذاب الأليم الذي تهددنا؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من الصادقين في دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا.

وهذا القول منهم يدل على توغلهم في الكفر والجحود، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول ﷺ .

● ودائماً الكفار يستعجلون العذاب استبعاداً منهم له:

- كما قال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ).  
 وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ).  
 وقال تعالى (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ).  
 وقال تعالى (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).  
 وقال تعالى (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ).  
 وقال تعالى عن قوم هود (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

الفوائد :

- ١- شدة طغيان الكفار وتمردهم باستعجالهم العذاب .  
 ٢- حكمة الله في تأخير العذاب عن الكفار إلى أجل معلوم عنده سبحانه .  
 ٣- حلم الله عن الكفار حيث لا يعاجلهم بالعقوبة .

( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ) .  
[ يونس : ٤٩ ] .

( قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) أي : قل لهم - أيها الرسول - لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها،  
• وقال بعض العلماء : أي : قل لهم -أيها الرسول-: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًّا، ولا أجلب لها نفعًا، إلا ما شاء الله أن يدفع عني من ضرِّ أو يجلب لي من نفع.

( لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ) أي : لكل قوم وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم .

• قال ابن كثير : ( لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ) أي: لكل قرن مدّة من العمر مقدّرة فإذا انقضى أجلهم .  
والأجل، هو الوقت الموقت المضروب لانقضاء المهلة.

• قال ابن عاشور: والمراد بالأمة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإلشراك أو في تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السّياق من قوله تعالى (وأن تشركوا بالله) إلخ وليس المراد بالأمة، الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

وفي هذه الآية قولان:

**القول الأول:** أن المعنى أن الله تعالى أمهل كل أمة كذبت رسوله إلى وقت معين، وهو تعالى لا يعذبهم إلى أن ينظروا ذلك الوقت الذي يصيرون فيه مستحقين لعذاب الاستئصال، فإذا جاء ذلك الوقت نزل ذلك العذاب لا محالة.  
وهو قول ابن عباس، والحسن، ومقاتل.

**والقول الثاني:** أن المراد بهذا الأجل العمر، فإذا انقطع ذلك الأجل وكمل امتنع وقوع التقديم والتأخير فيه، والقول الأول: أولى، لأنه تعالى قال (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) ولم يقل: ولكل أحد أجل.

• قال ابن عطية: قوله تعالى (ولكل أمة أجل) يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى ولكل أمة أي فرقة وجماعة، وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس، أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة ، كذلك قاله الطبري وغيره.

( إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ) أي : إذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم، فلا يستأخرون عنه ساعة فيمهلون، ولا يتقدم أجلهم عن الوقت المعلوم.

كما قال تعالى ( وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ) .

وقال تعالى ( مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ) .

وَقَالَ تَعَالَى ( إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .

والمراد أنه لا يتأخر عن ذلك الأجل المعين لا بساعة ولا بما هو أقل من ساعة إلا أنه تعالى ذكر الساعة لأن هذا اللفظ أقل أسماء الأوقات.

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة، وإنما المراد بها الوقت الذي هو في غاية القلة.

## الفوائد :

- ١ - تهديد الأمم الكافرة.
  - ٢ - أن تأخير العذاب عن الأمم الطاغية لحكمة .
  - ٣ - أن أفعال الله صادرة عن حكمة.
  - ٤ - أن عذاب الله إذا جل وحل لا يتأخر ولا يتقدم.
  - ٥ - إمهال الله الأمم الكافرة.
  - ٦ - تسليية لأهل الإيمان وطمأنينة لهم.
- ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ) . [ يونس : ٥٠ - ٥٢ ] .

( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ) أي : قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، فأبي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب؟

( أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ) أي : أبعد ما وقع عذاب الله بكم -أيها المشركون- آمنت في وقت لا ينفعكم فيه الإيمان؟ وقيل لكم حينئذ: آلان تؤمنون به، وقد كنتم من قبل تستعجلون به؟

• قال ابن كثير : قوله تعالى ( أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ) يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا ( رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ) .

وقال تعالى ( فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ) .

( ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ) أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله: تجرّعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً.

• قال ابن كثير : أي يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيناً وتقريراً، كقوله ( يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا \* هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْفِرُونَ \* أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ \* اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) .

( هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ) فهل تُعاقبون إلا بما كنتم تعملون في حياتكم من معاصي الله؟

## الفوائد :

- ١- تهديد هؤلاء الذين يستعجلون نزول العذاب .
  - ٢- أن الكافر إذا وقع العذاب ورأى الحق آمن ، لكن لا ينفعه الإيمان الآن .
  - ٣- أن الإيمان الاضطراري لا يقبله الله .
- كما أن التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، وعند الغرغرة لا تقبل .
- وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ( إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ) رواه مسلم
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ( مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ) رواه مسلم

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، قَالَ : ( إِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِضْ ) رواه الترمذي .

### الأول : إذا طلعت الشمس .

قال ابن الجوزي : وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان .  
وقال القرطبي : قال العلماء : وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوعها من مغربها ؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخمدُ معه كلَّ شهوة من شهوات النفس ، وتفتُر كلَّ قوّة من قوى البدن ؛ فيصير الناس كلهم لإيقاعهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال السعدي : والحكمة في هذا ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروي ، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، ألقع عما هو فيه كما قال تعالى ( فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ) .

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

### الثاني : عند الغرغرة .

لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون ( حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ) وقال تعالى ( فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ) .  
( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ حَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ( ٥٣ ) ) .

[ يونس : ٥٣ ] .

( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ) يقول تعالى : ويستخبرونك .

( أَحَقُّ هُوَ ) أي: المعاد والقيامة من الأحداث بعد صيرورة الأجسام تراباً .

( قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ حَقٌّ ) قل لهم -أيها الرسول- نعم وربي إنه لحق لا شك فيه .

( وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) .

قال الشوكاني : قوله تعالى ( وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أي : فائتين العذاب بالهرب والتحيل الذي لا ينفع ، والمكابرة التي لا تدفع من قضاء الله شيئاً .

• قال ابن كثير: وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد.

في سورة سبأ ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) .

وفي التغابن ( زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) .

## الفوائد :

- ١- إثبات البعث .
  - ٢- إنكار الكفار للبعث .
  - ٣- أمر الله لنبيه أن يقسم على إثبات البعث .
- ( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) ) .
- [ يونس : ٥٤ ] .

( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ) أي : ولو أن لكل نفس أشركت وكفرت بالله جميع ما في الأرض، وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب لافتدت به .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ) أي أشركت وكفرت . ( مَا فِي الْأَرْضِ ) أي ملكاً . ( لَافْتَدَتْ بِهِ ) أي من عذاب الله ، يعني ولا يقبل منها ؛ كما قال ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ) .

والظلم هنا الشرك والكفر .

( وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ) وأخفى الذين ظلموا حسرتهم حين أبصروا عذاب الله واقعاً بهم جميعاً .

وقال بعض العلماء : الذين أسروا الرؤساء ، أي : وأخفى هؤلاء الظلمة الندم ، لما عابوا العذاب ، قال الإمام الجلال : أي أخفاها رؤسائهم عن الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير .

● السبب في هذا الإخفاء وجوه :

الأول : أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهورين متحيرين ، فلم يطبقوا عنده بكاء ولا صراخاً سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوراً متحيراً لا ينطق بكلمة .

الثاني : أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم .

الثالث : أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة ، ومن أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تحكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته لم ينفعهم ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف .

● قال القرطبي : وهذا قبل الإحراق بالنار ، فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع ؛ بدليل قولهم ( رَبَّنَا عَلَبْنَا عَاقِبَتَنَا ) .

● قال الرازي : قوله تعالى ( وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ ) جاء على لفظ الماضي ، والقيامة من الأمور المستقبلية إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضي .

● واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد ، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره .

( وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ) وقضى الله عز وجل بينهم بالعدل .

( وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ) لكمال عدل الله ، فإنه سبحانه لا يظلم أحداً .

## الفوائد :

- ١- شدة عذاب يوم القيامة .
  - ٢- أن من شدة عذاب يوم القيامة يتمنى الكافر لو يفتدي منه بكل شيء .
  - ٣- أن أعظم الظلم الشرك بالله .
  - ٤- ندامة الكفار يوم القيامة .
  - ٥- فضيحة الكفار يوم القيامة زيادة في عذابهم .
  - ٦- أن الله يقضي بين الناس يوم القيامة بالعدل .
  - ٧- نفي الظلم عن الله لكمال عدله .
- ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) ) .
- [ يونس : ٥٥ ] .

( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض .  
 أي : كل ما في السموات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتديراً .  
 • قال أبو بكر الجزائري : خلقاً وملكاً وتصرفاً .

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم :

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا) .

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

• وهذه الجملة تؤيد تفرد سبحانه بالألوهية ، وذلك من جانبين :

**الأول :** حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله ، وليس للعبد أن يعبد غير مالكة ، أو يُشرك غيره معه في العبادة ، وقد نهاه عن ذلك .

**الثاني :** وحيث إن الجميع عبيد له ، فكيف يُعبد مملوك - كائناً من كان - ويُترك المالك ، أو يُشرك مملوك في العبادة مع المالك ، وقد نهي عن ذلك .

• والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

**أولاً :** الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة ( الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بينه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول: (إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

**ثانياً :** الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

**ثالثاً :** أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو

ملك الله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى ( آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ مَسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْقَضُوا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ) .

وقال ﷺ ( إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون .. ) رواه مسلم .

( أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ) أي : إن وعده بالبعث والجزاء حق كائن لا محالة .

( وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) أي : ولكن أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون .

### الفوائد :

١- تقرير ملك الله عز وجل للسموات والأرض .

٢- اختصاص ملك السموات والأرض لله عز وجل لا يملكهما أحد سواه ، قال تعالى : ( وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ) .

٣- عموم ملك الله لكل شيء .

٤- أن وعد الله حق .

٥- أن من أيقن بأن وعد الله حق قوي إيمانه ويقينه وكرمه وشجاعته .

٦- أن أكثر الناس على غير الحق .

٧- فضل العلم الذي يقود إلى معرفة الله والثقة به وخشيته .

( هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ) .

[ يونس : ٥٦ ] .

( هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ) أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزاد في عمر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره.

● قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: (والله يحيي ويميت) والله المعجل الموت لمن يشاء من حيث يشاء، والمميت من يشاء كلما شاء، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله عز وجل ترغيباً لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلاءً منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهي منه لهم، إذ كان كذلك، أن يجزوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين. أهـ

( وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) بعد الموت ، فيجازيكم على أعمالكم .

### الفوائد :

١- الذي بيده الحياة والموت هو الله .

٢- الشجاعة والإقدام وعدم الخوف ، لأن أمر الحياة والموت بيد الله لا بيد المخلوق .

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ) .  
[ يونس : ٥٧ - ٥٨ ] .

( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ) يقول تعالى ممثنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم:  
( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ) أي: زاجر عن الفواحش .  
والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة .  
● قال ابن عطية : هذه آية خوطب بها جميع العالم، والموعظة: القرآن؛ لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوقر ويوعد ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز. فما في القرآن من الأوامر والنواهي داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب.  
● وفي قوله ( من ربكم .. ) هذا لبيان قيمتها وأهميتها، وحث البشر على الاحتفاء بها.  
وقد بين سبحانه أن القرآن وما فيه من قصص وأحكام موعظة ( هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ) .  
وفي آية ثانية قال تعالى ( وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَقْنَا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ) .  
وفي آية ثالثة أكد سبحانه على أنه إنما يعظنا بالقرآن (وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِمَكُمْ بِهِ) .

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له قلبه.

( وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ) أي: من الشبهة والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس .  
لقد سمى الله القرآن العظيم شفاء في ثلاثة مواضع :  
في هذه الآية .

وقال تعالى ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ )  
وقال تعالى ( وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ) .  
( وَهُدًى ) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

● فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا تَمْوُدُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) . وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي) .

● وكون الهدى يُطلق إطلاقاً عاماً وإطلاقاً خاصاً إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) مع قوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فنفى عنه الهدى في آية وأثبت له في آية، فالهدى المثبت له في قوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحجة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ) (إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) .

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يجبها الله.

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) وقوله (وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا).

وقوله (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

( وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

كما قال تعالى: ( وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ) .

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ).

● قال صاحب الكشاف : المعنى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم .

( قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ) قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به .

وقيل : الفضل القرآن ، والرحمة أن جعلهم من أهله.

● قال الشوكاني : المراد بالفضل من الله سبحانه : هو تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر ، والرحمة : رحمته لهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال : فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام.

وروي عن الحسن والضحاك ، ومجاهد وقتادة ، أن فضل الله : الإيمان ، ورحمته : القرآن.

والأولى : حمل الفضل والرحمة على العموم ، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولاً

( هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ) أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

الفوائد :

١- الثناء العظيم على القرآن العظيم .

٢- أن القرآن شفاء لكل الأمراض الجسدية والنفسية .

٣- الحث على تلاوة القرآن وتدبره .

٤- أن القرآن أعظم موعظة لمن أراد أن يتعظ .

٥- على كل داعية أن يعظ الناس بالقرآن .

٦- أن هذا القرآن هدى لكل طريق خير وسعادة .

٧- ينبغي على المسلم أن يفرح بالإسلام والإيمان والقرآن .

٨- ذم جمع الدنيا والاعتناء بها .

٩- أن حطام الدنيا زائل ، فما يبقى خير مما يزول .

( قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) ) .  
[ يونس : ٥٩ - ٦٠ ] .

( قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ) خطاب لكفار العرب، والمعنى: أخبروني أيها المشركون، عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال .

( فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ) أي : فحرمتم بعضه وحللتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة .

قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يخلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام .

( قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ) أي قل لهم يا محمد أخبروني : هل حصل لكم إذن من الله بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممثلون لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟

( وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) أي: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

( إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ) قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا.

• قال ابن كثير : قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم.

( وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ) أي : لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون .

• قال ابن كثير : بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

• قال السعدي : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

#### الفوائد :

- ١- تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ .
- ٢- أن التحريم والتحليل حق لله تعالى دون سائر خلقه .
- ٣- تحريم الكذب على الله في التحليل والتحريم .
- ٤- أن الأصل في جميع الأطعمة الحل إلا ما دل الدليل على تحريمه .
- ٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه .
- ٦- تهديد للذين يكذبون على الله يوم القيامة .
- ٧- عظم فضل الله على عباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة .
- ٨- ما أعظم نعم الله على عباده ومع ذلك قليل من يشكر .
- ٩- علو منزلة من يقوم بشكر الله على نعمه .

( وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) )  
[ يونس : ٦١ ] .

يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم، وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام. فقال:

( وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ) أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.  
( وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ) أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.  
( وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ) صغير أو كبير .  
( إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ) أي: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.  
فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة، والاجتهاد فيها، وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.  
( وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ ) أي: ما يغيب عن علمه، وسمعته، وبصره ومشاهدته .  
( مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ) أي : وما يغيب عن علم ربك -أيها الرسول- من زنة نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء .  
والذرة النملة الصغيرة .

( وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ) أي : وسواء كانت أصغر من النملة أو أكبر منها.  
( إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) أي : في كتاب عند ربك ، والمراد به اللوح المحفوظ .  
● اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق: سماه القرآن بالكتاب كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ).  
وبالإمام المبين ، كما في قوله تعالى ( وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ).  
وبالكتاب المسطور ، كما في قوله تعالى ( وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ).  
وبأم الكتاب ، كما قال تعالى ( وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ).  
● في هذه الآية عموم علم الله تعالى .

قال ابن كثير : يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

كقوله ( وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) .

فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ) .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال الطبري : والآية خبر منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خف في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فإننا محصوها عليكم ومجازوكم بها .

### الفوائد :

١ - عموم علم الله تعالى لكل شيء .

أولاً: الله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكلديات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .  
ثانياً: يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

(ما بين أيديهم) الحاضر والمستقبل (وما خلفهم) الماضي .

ثالثاً: الله يعلم الخفايا وما في الصدور :

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمَ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ) .

رابعاً: وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلْبِغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ) .

خامساً: ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً، لأن الله هو الذي ثبتهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ فَتَبَطَّحَهُمْ وَقِيلَ افْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون، كما

صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

سادساً: ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة .

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالنُّقُولِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا) .

الله يعلم ما تحمّل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء

منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وساربت بالنهار) .

سابعاً: وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

قال تعالى ( ... قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) .

وقال تعالى ( ... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ).

أما علم ابن آدم فمسيوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى ( وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ).  
ثامناً: علمنا قليل بالنسبة لعلم الله.

قال تعالى ( وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ).

٢ - وجوب الخوف من الله.

٣ - الحذر من إبطان الشر والنفاق والرياء في القلب ، لأن الله لا يخفى عليه شيء.

٤ - في هذه الآية أعظم زاجر ، وأكبر واعظ عن اقتراف المعاصي.

٥ - الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً.

٦ - اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كافة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر.

( أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) )

[ يونس : ٦٢ - ٦٤ ] .

( أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرههم ربه، فكل من كان تقياً كان لله ولياً أنه ( لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) أي فيما يستقبلون من أهوال القيامة ( ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ) على ما وراءهم في الدنيا.

والمعنى: ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم، وحسن عملهم، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله سبحانه، فمتى فعلوا ما يؤدي إلى ذلك هان كل ما سواه. وهم :

( الَّذِينَ آمَنُوا ) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

( وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) أي : وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتنال الأوامر، واجتناب النواهي ، فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله [تعالى] ولياً .

● وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ. لا تزلزله الشكوك، ولا تؤثر فيه الشبهات.

● أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ، الذين يراقبون الله تعالى في جميع شؤونهم ، فيلتزمون بأوامره ، ويجتنبون نواهيه ، كما قال الله تعالى : ( الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ) .

الولاية متفاوتة بحسب إيمان العبد وتقواه ، فكل مؤمن له نصيب من ولاية الله ومحبته وقربه ، ولكن هذا النصيب يتفاوت بحسب الأعمال الصالحة البدنية والقلبية التي يتقرب بها إلى الله ، وعليه يمكن تقسيم درجات الولاية إلى ثلاث درجات :

أولاً : درجة الظالم لنفسه : وهو المؤمن العاصي ، فهذا له من الولاية بقدر إيمانه وأعماله الصالحة

ثانياً : المقتصد : وهو المؤمن الذي يحافظ على أوامر الله ، ويجتنب معاصيه ، ولكنه لا يجتهد في أداء النوافل : وهذا أعلى درجة

في الولاية من سابقه

ثالثاً : السابق بالخيرات : وهو الذي يأتي بالنوافل مع الفرائض ، ويبلغ بالعبادات القلبية لله عز وجل مبالغ عالية ، فهذا في درجات الولاية العالية.

( هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) زيادة تكريم وتشريف لهم.

والبشرى والبشارة: الخبر السار، فهو أخص من الخبر، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان، فيجعله متهلل الوجه، منبسط الأسارير، مبتهج النفس.

واختلف العلماء في المراد في البشرى بالحياة الدنيا :

القول الأول : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ، قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ( هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ .

القول الثاني : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة .

كما في قوله تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نَزَلًا مِنْ عَفْوَِرِ رَحِيمٍ ) .

وفي حديث البراء ( أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وربحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء ) .

القول الثالث : أنها ما بشر الله به في كتابه من جنته وثوابه ، كقوله ( وبشر الذين آمنوا ) ( وأبشروا بالجنة ) .

واختار بعض العلماء العموم .

قال الطبري : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يُقال : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَخْبَرَ أَنَّ لِأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمِنَ الْبَشَارَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ ؛ مِنْهَا بَشَرَى الْمَلَائِكَةِ إِيَّاهُ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي تَحْضُرُهُ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهِ ، تَقُولُ لِنَفْسِهِ : اخْرُجِي إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ .

ومنها : بشرى الله إيَّاهُ مَا وَعَدَهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ تَنَاؤُهُ : ( وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ بَاطِنًا مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ) الْآيَةَ . وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنْ بَشَرَى اللَّهِ إِيَّاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَشَرُهُ بِهَا ، وَمَنْ يُحْصِصِ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى دُونَ مَعْنَى ، فَذَلِكَ بِمَا عَمَّهُ جَلَّ تَنَاؤُهُ أَنَّ ( هُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَالْجَنَّةُ .

وقال السعدي : أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

( وَفِي الْآخِرَةِ ) قال النعالبي : أمَّا بشرى الآخرة ، فهي بالجنة ؛ بلا خلاف قولاً واحداً ، وذلك هو الفضل الكبير .

● قال السعدي : وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ) .

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

● قال ابن كثير : وأما بشرهم في الآخرة، فكما قال تعالى ( لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ) .

وقال تعالى ( يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) .

( لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ) أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة .

● قال السعدي : قوله تعالى ( لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ) بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قوله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

( ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ) لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرية شاملة لكل خير وثواب، رتبته الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يقيده.

الفوائد :

١- عظم منزلة ولاية الله .

٢- على المسلم أن يجتهد أن يكون ولياً لله .

٣- أن ولاية الله ليست بالدعوى والتمني ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح .

٤- أنه لا خوف ولا حزن على من كان لله ولياً .

٥- كلما كان الإنسان أكثر ولاية لله كان أكثر أمناً واطمئناناً .

٦- البشرية في الدنيا لمن كان ولياً لله .

٧- الفوز بالجنة هو أعظم فوز .

٨- أنه لا تبديل لكلمات الله وأوامره وأحكامه .

( وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) )

[ يونس : ٦٥ ] .

( وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ) أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدح فيك، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئاً .

كقولهم : لست برسول ، مجنون ، كذاب ونحوها .

والحزن ضد السرور .

( إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ) فإن العزة والغلبة والقوة والقهر لله جميعاً ، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين .

( هُوَ السَّمِيعُ ) أي: السميع لأقوال عباده .

( الْعَلِيمُ ) العليم بأحوالهم .

● قال السعدي : قوله تعالى ( هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو تعالى يسمع قولك، وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله، فهو حسبه.

## الفوائد :

- ١- عناية الله برسوله ﷺ حيث يواجهه بما يقابل به الأعداء .
  - ٢- أن كلام الأعداء والطعن في الدعوة لا يضر .
  - ٣- تسليية لكل داعية إلى الله يواجه مصاعب في دعوته من الناس .
  - ٤- أن من أيقن أن العزة لله ، فإنه لا يبالي بكلام الناس وطعنهم ، بل يرداد ثباتاً وقوة .
  - ٥- أن الله سميع لأقوال هؤلاء الأعداء ، وسيجازيهم عليها .
  - ٦- أن الله لا يخفى عليه شيء .
- ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) ) .
- [ يونس : ٦٦ ] .

- ( أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ) خلقاً وملكاً وتدبيراً .
- ( وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ) أي : وما يتبع هؤلاء المشركون آلهة على الحقيقة ، بل يظنون انها تشفع وتنفع ، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً .
- ( إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ) أي : ما يتبعون إلا ظناً باطلاً .
- ( وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ) أي : يكذبون ، يظنون الأوهام حقائق .
- الفوائد :

- ١- عموم ملك الله تعالى .
  - ٢- أن كل آلهة غير الله باطلة .
  - ٣- وجوب عبادة الله تعالى .
  - ٤- أن كل من عبد غير الله فهو متبع لهواه .
- ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ) .
- [ يونس : ٦٧ ] .

- ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ) أي: يستريحون فيه من نصبتهم وكلالهم وحركاتهم .
- قال السعدي : في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء، لما قروا، ولما سكنوا.
  - ( وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ) أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم .
  - ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ) أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.
  - قال السعدي : قوله تعالى (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ) عن الله، سمع فهم، وقبول، واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك آيات، لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم

العليم الحكيم.

- وقد ذكر الله تعالى هذه الآية ( الليل للسكن والنهار للمعاش ) في مواضع من كتابه :  
كما قال تعالى ( فَالْقُوْا اِلَاصْبَاحٍ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ ) .  
وقال تعالى (اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوْا فِيْهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا اِنَّ اللّٰهَ لَدُوْ فَضْلٍ عَلٰى النَّاسِ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُوْنَ).  
وقال تعالى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوْا فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ).  
أي : لِتَسْكُنُوْا فِي اللَّيْلِ ، وَلِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ بِالنَّهَارِ فِي السَّعْيِ لِلْمَعَاشِ .  
وقال تعالى (قُلْ اَرَأَيْتُمْ اِنْ جَعَلَ اللّٰهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا اِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ اِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيْكُم بِضِيَاٍۭ اَفْلا تَسْمَعُوْنَ).  
وقال تعالى (اَلَمْ يَرَوْا اَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوْا فِيْهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ).  
وقال تعالى ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ) .

- قال الشنقيطي : فالإيتان بالليل بدل النهار والإيتان بالنهار بدل الليل من أعظم آيات الله - جل وعلا - الدالة على أنه المعبود وحده، وأنه الربُّ وحده، ومع كون الليل والنهار آيتين فهُمَا أيضًا نعمتان عظيمتان من أعظم نعم الله على خلقه، فهما جامعان بين كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وبَيَّنَّ أَنَّهُمَا آيَاتَانِ بِقَوْلِهِ (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ) وَبَيَّنَّ أَنَّهُمَا نِعْمَتَانِ وَآيَاتَانِ فِي مَوَاضِعٍ كَثِيْرَةٍ مِنْ أَصْرَحِهَا سُورَةُ الْقَصَصِ حَيْثُ قَالَ فِيهَا: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُمَا نِعْمَتَانِ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُمَا آيَاتَانِ قَالَ: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ) يَعْنِي النَّهَارَ ، فَجَعَلَ اللَّيْلَ مُظْلَمًا مُنَاسِبًا لِلسُّكُونِ وَالهُدُوءِ وَعَدَمِ الْحَرَكَةِ لِيَسْتَرِيحَ النَّاسُ مِنْ كَدِّ الْأَعْمَالِ وَالتَّعَبِ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ يَجْعَلُ النَّهَارَ مُضِيًّا مُنِيرًا مُنَاسِبًا لِيَثَّ النَّاسُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَاِكْتِسَابِ مَعَايِشِهِمْ فِي نَوْرِ سَاطِعٍ مِنْ غَيْرِ فِتِيلَةٍ وَلَا زَيْتٍ وَلَا حَاجَةٍ إِلَى مَوْئِدَةٍ.

الفوائد :

- ١- رحمة الله بعباده حيث جعل الليل للسكن والهدوء ، والنهار مبصرًا للمعاش والعمل .
- ٢- إثبات الحكمة في أفعال الله .
- ٣- أن جعل الليل مظلمًا والنهار مبصرًا من أعظم الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى .
- ٤- أن هذه الآيات لا يعتبر بها إلا من يسمع آيات الله سمع فهم وتدبر وتعقل .
- ٥- ذم من لا يسمع آيات الله سمع تدبر وتفهم .
- ٦- أن الله تعالى برحمته يبين لعباده الآيات وينوعها لعلهم يهتدون ويتوبون .

( قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ اِنْ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا اَتَقُولُوْنَ عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ (٦٨) )

[ يونس : ٦٨ ] .

( قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ) هذا إخبار عن النصارى عليهم لعائن الله ، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله .

- قال الشنقيطي : هذا الولد المزعوم على زاعمه لعائن الله، قد جاء مفصلاً في آيات أخر.

كقوله تعالى: ( وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ) وقوله ( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ) .

( سُبْحَانَهُ ) أي: تقدس وتنزه وتعظيم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد، والنظراء والشركاء.

( هُوَ الْعَزِيزُ ) الغنى الكامل ، الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه سبحانه .

( لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ) خلقاً وملكاً وتدبيراً .

وفي البقرة ( بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ) .

( إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ) أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولدًا، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم

وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم .

( أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ) فإن هذا من أعظم المحرمات.

مباحث :

● فادعاء الله الولد أمر خطير وكبير .

كما قال تعالى (إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) .

وقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا

لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ( قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ

أَيُّيَ لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا ) رواه البخاري .

وقال ﷺ ( لا أحد أصبر على اذى سمعه من الله ، إنيهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم ) متفق عليه

● وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به ، نزه نفسه عن ذلك ، معلماً خلقه في كتابه

أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به ، جاء موضحاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ).

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ).

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ).

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ).

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ).

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعَرُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا).

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

● والله منزه عن الولد لأمر متعددة:

أولاً: لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مباحياً له في كل الأحوال .

كما في هذه الآية ( قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ ) .

ثانياً: أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة .

كما ذكر الله ذلك في سورة الأنعام ( وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

يَصِفُونَ . بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

ثالثاً: أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي: بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت.

رابعاً: أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني .

وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني)... [قاله الشيخ ابن عثيمين].

قال الرازي: إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له ، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم (ذلك عيسى ابن مريم قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقال أيضاً في آخر هذه السورة (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا \* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَاذُ السَّمَاوَاتِ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا \* أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا \* وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا \* إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا).

● أن من أسماء الله الغني .

فإنه غني عن كل ما سواه ، غني في نفسه لكثرة ما عنده ، غني عن خلقه ، كما قال تعالى (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) له ملك السموات والأرض ، وخزائن السموات والأرض كلها بيده ، كما قال تعالى (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ، فخزائنه عز وجل ملاء ، لا يغيضها كثرة الإنفاق ، وليس بحاجة إلى خلقه ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، وكل شيء فقير إليه.

● قال ابن القيم: هو الغني بذاته الذي كل ما سواه محتاج إليه ، وليس به حاجة إلى أحد.

● وقال السعدي: هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكمالها، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً قادراً رازقاً محسناً فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً.

قال: ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ، ولا ولياً من الدل.

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرته وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون.

● فغنى الله يتضمن شيئين: الأول: الغنى الذاتي ، لكثرة ما يملكه ، إذ كل شيء ملكه ، والثاني: الغنى عن الغير ، فلا يحتاج إلى أحد وغيره محتاج إليه.

● الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم:

أولاً: إفراد الله تعالى بالعبادة ، لأنه سبحانه هو الغني الغنى المطلق ، والغنى وصف له سبحانه ذاتي وما سواه من الخلائق مفتقر إليه ، فالأمر كله له والملك كله له ، وجميع الخلق مربوبون مملوكون ، فكيف يتخذ منهم معبوداً مع الله تعالى؟

ثانياً: الافتقار التام إلى الله عز وجل ، لأن الفقر صفة ذاتية ملازمة للعبد في جميع أحيانه ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى ، ولا يستغني عن ربه سبحانه طرفة عين ، لأنه سبحانه الغني ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد ، وكل أحد محتاج إليه.

ثالثاً: أن هذا الاسم يثمر في قلب المؤمن الغنى القلبي كما في الحديث (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى القلب) وهذا يثمر الاستغناء بالله تعالى وحده عن الناس وعزة النفس، والتعفف والزهد بما في أيدي الناس، وعدم التذلل لهم وعدم التعلق بأعطياتهم وإعانتهم، بل يجرد العبد تعلقه وقضاء حوائجه وطلب رزقه بالله الغني الحميد الكريم الوهاب الذي لا تغنى خزائنه.

رابعاً: أن الله غني عن عبادته، ومع ذلك فهو محسن إليهم، رحيم بهم، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته.

أما العباد فإنهم يحسنون إلى بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً.

● ومن غنى الله أنه منزّه عن الولد، لأن الولد إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره، والله سبحانه وتعالى غني، وقد أشار إلى ذلك بقوله (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

#### الفوائد :

١- تنزيه الله عن الولد .

٢- وجوب تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص .

٣- بيان غنى الله عن اتخاذ الولد، حيث أنه سبحانه وتعالى مالك السماوات والأرض وما فيهما .

٤- إثبات اسم الغني من أسماء الله تعالى، المتضمن لصفة الغنى الكامل .

٥- تحريم القول على الله بغير علم .

( قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) .

[ يونس : ٦٩ - ٧٠ ] .

( قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ) أي : كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح .

● قال السعدي : أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم .

( مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ) أي: مدة قريبة .

( ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ) أي: يوم القيامة .

( ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ) أي: الموجه المؤلم .

( بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ) أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور .

● المتاع: ما يتمتع به ويذوق، فمتاع هذه الدنيا قليل من حيث نوعه ومن حيث مدته، فمتاع الدنيا يزول، أو أنت تزول عنه، وكذلك نعيمه فهو قليل بالنسبة لنعيم الآخرة .

ومتاع الدنيا قليل .

كما قال تعالى ( قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ )

● قال القرطبي: وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له .

قال سبحانه وتعالى عن مؤمن فرعون أنه قال لقومه ( يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ) .

وقال القرطبي: متاع: أي يتمتع بها قليل ثم تنقطع وتزول. ودار الآخرة هي دار الاستقرار والخلود.

قال ابن رجب: وقال الله تعالى عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار) والمتاع: هو ما يتمتع به صاحبه برهة ثم ينقطع ويفنى.

فما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها وتقلب أحوالها، وهو أدل دليل على انقضائها وزوالها، فتتبدل صحتها بالسقم، ووجودها بالعدم، وشيبتها بالهرم، ونعيمها بالبؤس، وحياتها بالموت، فتفارق الأجسام النفوس وعمارتها بالخراب واجتماعها بفرقة الأحباب وكل ما فوق التراب تراب قال بعض السلف في يوم عيد وقد نظر إلى كثرة الناس وزينة لباسهم: هل ترون إلا خرقا تبلى أو لحما يأكله الدود غدا كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: يا دار تخربين ويموت سكانك.

قال عليه السلام (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) رواه الترمذي.

وقال عليه السلام (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ... ) رواه الترمذي.

وقال عليه السلام (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) رواه مسلم.

وقال عليه السلام (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) رواه الترمذي.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبه في اليم فلينظر بما يرجع) رواه مسلم

قال النووي رحمه الله: ما للدنيا بالنسبة للآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر.

وقال عليه السلام لابن عمر (يا ابن عمر كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) رواه البخاري وفي رواية (وعد نفسك من أهل القبور).

#### فائدة :

قال تعالى (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى) أي: آخرة المتقي خير من دنياه.

وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى).

● قال الرازي: وإنما قلنا: إن الآخرة خير لوجوه:

الأول: أن نعم الدنيا قليلة، ونعم الآخرة كثيرة.

والثاني: أن نعم الدنيا منقطعة ونعم الآخرة مؤبدة.

والثالث: أن نعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره، ونعم الآخرة صافية عن الكدرات.

#### الفوائد :

١- تحريم الكذب على الله .

٢- كل من كذب على الله فإنه لن يفلح .

٣- ذم الاغترار بالدنيا .

٤- أن متاع الدنيا قليل .

٥- أن متاع الآخرة هو المتاع الباقي .

٦- تهديد كل مكذب وظالم بأنه سيرجع إلى الله لينال عقابه .

( وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) ) .

[ يونس : ٧١ - ٧٣ ] .

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه:

( وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ) أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك .

وذلك لفوائد :

الأولى : تسلية للرسول ﷺ .

والثانية : حمله على الصبر .

والثالثة : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سبباً في انكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في نفوسهم. وحينئذ يقلعون عن أنواع الإيذاء والسفاهة .

وذكر الرازي أيضاً :

منها : ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن الرسول إذا سمع أن معاملته هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت .

ومنها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن الجهال ، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم ، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سبباً لانكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم ، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة .

ومنها : أنا قد دللنا على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يطالع كتاباً ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت ، ومن غير زيادة ومن غير نقصان ، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل .

● وقال ابن عاشور : ... ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك أو أنهم إنما يمتعون قليلاً ثم يؤخذون أخذة رابية ، كما متع قوم نوح زمناً طويلاً ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا ، فذكر قصة نوح مع قومه عظة للمشركين وملقياً بالوجل والذعر في قلوبهم ، وفي ذلك تأنيس للرسول ﷺ وللمسلمين بأنهم إسوة بالأنبياء ، والصالحين من أقوامهم ، وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها كما ينبىء عن ذلك قوله في نهاية هذه القصص .

( نَبَأَ نُوحٍ ) أي: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك .

وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلم يؤمنوا .

ونوح عليه السلام : واحد من أولى العزم من الرسل، وقد ذكر في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً .

وكان قومه يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً ليدلهم على طريق الرشاد .

وقد تكررت قصته مع قومه في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، ونوح ... بصورة أكثر تفصيلاً .

أما هنا في سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة، لأن الغرض منها هنا، إبراز جانب التحدي من نوح لقومه، بعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غيره.

● والمقصود من هذه التلاوة، دعوة مشركي مكة وأمثالهم، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم، لعلمهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذي جاءهم به نبيهم محمد ﷺ .

● قال السعدي : فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزداهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم .

( إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَكُمْ عَلَيَّكُمْ ) أي: عَظُمَ عَلَيْكُمْ .

( مَقَامِي ) أي فيكم بين أظهركم .

( وَتَذَكِيرِي ) إياكم .

( بآياتِ الله ) الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردوا الحق .

● قال الخازن : ... وذلك أنه أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبياناته فعزمتهم على قتلي وطردني .

( فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ) أي: اعتمدت على الله، في دفع كل شر يراد بي، وبما أدعو إليه، فهذا جندي، وعدتي ، وأنتم، فأتوا بما

قدرتم عليه من أنواع العَدَدِّ والعُدَدِ .

( فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ) أي: فاجتمعوا أنتم وشركاءكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن .

● قال ابن عاشور : وإجماع الأمر العزم على الفعل بعد التردد بين فعله وفعل ضده.

● قال الفراء : الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر ، قال ابن الأنباري : المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم وكرهم فالتقدير : لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه .

● قال الخازن : قوله تعالى ( وشركاءكم ) يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم ، فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيك والتوبيخ لهم .

● قال ابن عاشور : ... وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنه لا يخشاها لأنها في اعتقادهم أشد بطشاً من القوم ، وذلك تحكم بهم ، كما في قوله تعالى ( قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ) .

( ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ) أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي .

( ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ ) أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء، الذي في إمكانكم .

وَلَا تُنظِرُونِ ) أي: لا تمهلوني ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بدأ قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه، وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاءكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرتون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقاً، وهم الكاذبون فيما يدعون،

كما قال هود لقومه ( إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) .

**قال القرطبي :** وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقاً ، ومن كيدهم غير خائف ؛ علماً منه بأنهم وأهلتهم لا ينفعون ولا يضرّون ، وهو تعزيةً لنبيه عليه السلام وتقويةً لقلبه .

● فأنت ترى في هذه الآية الكريمة كيف أن نوحاً - عليه السلام - كان في نهاية الشجاعة في مخاطبته لقومه، بعد أن مكث فيهم ما مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده.

فهو - أولاً - يصارحهم بأنه ماضٍ في طريقه الذي أمره الله بالمضي فيه، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده.

وهو - ثانياً - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيدته وحره.

وهو - ثالثاً - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد، لأن حاله معهم قد أصبح واضحاً وصريحاً.

وهو - رابعاً - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكربهم.

وهكذا نرى نوحاً عليه السلام يتحدى قومه تحدياً صريحاً مثيراً. حتى إنه ليغيرهم بنفسه، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه - إن استطاعوا ذلك -.

وما لجأ عليه السلام إلى هذا التحدي الواضح المثير إلا لأنه كان معتمداً على الله تعالى الذي تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوى إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تديبر وتقدير أمام تديبره وتقديره.

( فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ) أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة .

( فَمَا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرٍ ) أي: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً .

● **قال الرازي :** قال المفسرون : هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالا على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغاً من الطمع كان قوله أقوى تأثيراً في القلب .

● **وقال الألوسي :** قوله تعالى ( فَمَا سَأَلْتَكُمْ ) بمقابلة تذكيري ووعظي ( مِنْ أَجْرٍ ) تؤدونه إلي حتى يؤدي ذلك إليكم إلى توليكم ، إما لاثمامكم إياي بالطمع ، أو لثقل دفع المسؤل عليكم ، أو حتى يضربني توليكم المؤدي إلى الحرمان ، فالأول لإظهار بطلان التولي ببيان عدم ما يصححه ، والثاني لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه .

● **وقال ابن عاشور :** والمعنى : فإن كنتم قد توليتم فقد علمتم أنني ما سألتكم أجراً فتهموني برغبة في نفع ينجر لي من دعوتكم حتى تعرضوا عنها شحاً بأموالكم أو اتماماً بتكذيبي ، وهذا إلزام لهم بأن توليهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إياه بتطلب نفع لنفسه ، وبذلك برأ نفسه من أن يكون سبباً لتوليهم .

( إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) أي: وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل .

والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم .

كما قال تعالى ( لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ) .

قال ابن عباس: سبيلا وسنة.

فهذا نوح يقول ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) .

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل ( إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ) .

وقال يوسف ( رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ) .

وَقَالَ مُوسَى ( يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ) .

( فَكَذَّبُوهُ ) بعد ما دعاهم ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً .

( فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ ) أي: على دينه .

( فِي الْفُلْكِ ) وهي: السفينة ، الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التنور: ف ( احمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَرَ ) ففعل ذلك.

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منههم وفجر الأرض عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر ( وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) بَحْرِيٍّ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ) .

( وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ) في الأرض بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته، هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض ( وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ) بعد ذلك البيان، وإقامة الرهان ( فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ) وهو: الهلاك المخزي، واللعة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوماً، ولا ترى إلا قدحاً وذمّاً.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك، والخزي، والنكال

( وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ) أي: في الأرض بعد إهلاك المكذبين ، ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته، هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض .

هذه هي عاقبة نوح والمؤمنين معه . أما عاقبة من كذبه فقد بينها سبحانه في قوله:

( وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ) أي : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا.

( فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ) أي : فانظر وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع معهم النذر والآيات التي جاءهم بها نبيهم نوح عليه السلام .

فالمراد بالأمر بالنظر هنا: التأمل والاتعاظ والاعتبار لا مجرد النظر الخالي عن ذلك.

### الفوائد :

مباحث تتعلق بقصة نوح :

#### مبحث : ١

هذه القصة لها شأن عظيم لقوله تعالى ( وَآتَاهُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ) .

والنبا وهو الخبر، والنبا أخص من الخبر، فكل نبا خبر وليس كل خبر نبا، لأن النبا لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبا عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دللت على كمال قُدرة الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم

مثل ما وقع من الأولين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نُقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا).

#### مبحث : ٢

وقد دعا نوح على قومه :

قال تعالى ( وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى ( وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا )

وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَتِيًّا مَغْلُوبًا فَانْتَصِرَ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَجِرٍ).

#### مبحث : ٣

فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه ؟

فالجواب : دعا نوح على قومه لأمرين :

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأَوْحِيْ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا).

#### مبحث : ٤

ونجى الله نوحاً ومن آمن.

كما قال تعالى ( فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ) .

والمراد بأهله من آمن منهم، أما من لم يؤمن فقد غرق مع من غرق كابنه .

كما قال تعالى (وَهِيَ تَجْرِي بِهَمِّ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ

سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ. وَقِيلَ يَا

أَرْضُ ائْبَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ

فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا

تَسْأَلُنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

#### مبحث : ٥

وأمره تعالى أن يحمل معه ثلاثة أشياء:

أولاً: قال تعالى (فُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ).

والمقصود بالزوجين كل شيعتين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى.

ثانياً: قال تعالى (وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ).

والمراد ابنه وزوجته فقد كانا كافرين حكم الله عليهما بالهلاك.

ثالثاً: قال تعالى (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

#### مبحث : ٦

أهلك الله قوم نوح بالغرق:

كما قال تعالى (وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ).

وقال تعالى (بِمَا خَطِبْتَاهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا).

وقال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَا هُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوْءٌ فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ).

( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) ) .

[ يونس : ٧٤ ] .

( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ ) يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح .

( رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ ) يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً .

● قال ابن عاشور : وقد أجم الرسل في هذه الآية ، ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم : هود وصالح ، وإبراهيم ، ووط ، وشعيب ، وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى ( ورسلًا لم نقصصهم عليك ) ، ويتعين أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله ( ثم بعثنا من بعدهم موسى ) ، وفي الآية إشارة إلى أن نوحاً أول الرسل .

( فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ... ) أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به .

● قال ابن عاشور : وقد قوبل جمع الرسل بجمع ( البيئات ) فكان صادقاً بيئات كثيرة موزعة على رسل كثيرين ، فقد يكون لكل نبي من الأنبياء آيات كثيرة ، وقد يكون لبعض الأنبياء آية واحدة مثل آية صالح وهي الناقة .

● قال ابن عطية : ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ ، أي كما حل بمؤلاء يحل بكم .

( فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ) للمفسرين في معنى هذه الجملة الكريمة أقوال:

فمنهم من يرى أن الضمائر في « كانوا، ويؤمنوا، وكذبوا » تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح ﷺ وأن المراد بقوله: مِنْ قَبْلُ؛ أي: من قبل مجيء الرسل إليهم .

والمعنى على هذا الرأي: ثم بعثنا من بعد نوح ﷺ رسلاً كثيرين إلى أقوامهم فجاءوهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام الأشقياء. استمروا على كفرهم وعنادهم، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به من قبل مجيء الرسل إليهم وهو إفراد الله تعالى بالعبادة والطاعة فكان حالهم في الإصرار على الكفر والجحود قبل مجيء الرسل إليهم، كحالهم بعد أن جاءوهم بالهدى ودين الحق، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير .

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام البيضاوي .

فقد قال ( قوله: فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ) أي : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر، وخذلان الله إياهم.. بما كذبوا به من قبل، أي بسبب تعودهم تكذيب الحق، وترنم عليه قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام .

ومنهم من يرى أيضاً أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح ﷺ إلا أن المراد بقوله مِنْ قَبْلُ؛ أي : من قبل ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام .

وعليه يكون المعنى: ثم بعثنا من بعد نوح ﷺ رسلاً كثيرين إلى أقوامهم، فجاءوهم بالأدلة الواضحة الدالة على صدقهم، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم، واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم، فكان تكذيبهم لهم في آخر

أحوالهم معهم، يشبه تكذيبهم لهم من قبل. أي: في أول مجيئهم إليهم.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي: الإمام ابن كثير .

فقد قال قوله ( فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ) أي : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم، كما قال تعالى ( وَتُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ ) .

ومنهم من يرى أن الضمير في قوله « كانوا ويؤمنوا » يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح عليه السلام وأن الضمير في قوله « كذبوا » يعود إلى قوم نوح، وعلى هذا الرأي يكون المعنى:

ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام رسلا إلى أقوامهم. فجاءهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا في كفرهم وعنادهم، وأبو أن يؤمنوا بوحدانية الله التي كذب بها قوم نوح من قبل.

ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي الإمام ابن جرير فقد قال :

قوله ( فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ) يقول : فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم من الأمم الخالية .

وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة، تدل على أن هؤلاء الأقوام عموا وطمسوا عن الحق، واستمروا على ذلك دون أن تحوهم الآيات البينات التي جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم.

( كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ) بيان لسنة الله تعالى في خلقه التي لا تتخلف ولا تتبدل.

والطبع: الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشيء ما دخل فيه، ولا يدخل فيه ما خرج منه.

أي: مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين للحدود في الكفر والجحود، وذلك بخذلانهم، وتخليتهم وشأنهم، لانهماكهم في الغواية والضلال.

● قال ابن كثير : أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من

أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم .

● قال ابن عاشور : والطبع : الختم ، وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم .

الفوائد :

١- إثبات الرسل .

٢- أن كل أمة قد أرسل لها رسولا .

٣- أن كل رسول يكون معه من الآيات ما يدل على صدقه .

٤- أن أكثر الناس لا يؤمنون .

٥- أن من ختم الله على قلبه فلن يؤمن .

( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعُدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) .

[ يونس : ٧٥ - ٩٢ ] .

( ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ) أي : من بعد تلك الرسل ، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

( مُوسَى ) ابن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل.

( وَهَارُونَ ) وهو اخو موسى .

( إِلَى فِرْعَوْنَ ) وهو ملك مصر في زمن موسى.

( وَمَلَئِهِ ) أي: قومه.

- قال أبو حيان : ولا يخص قوله : وملائته بالإشراف ، بل هي عامة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم.
  - قال الألوسي : أي أشرف قومه الذين يجتمعون على رأي فيملأون العين رواء والنفوس جلاله وبهاء ، وتخصيصهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل إليهم في النوازل والملمات .
- ( بِآيَاتِنَا ) أي : بحججنا وبراهيننا .

كما قال تعالى ( وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ) أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى ( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ) وقال تعالى ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ) .

- البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبسًا، ومنه (البيئات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبسًا، فالبيئات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبسًا. ومعنى (البيئات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبيًا قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل

هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما حرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عني. فهو تصديق من الله، ولذا سُمِّيَ مُعْجِزَةً؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر. (الشنقيطي).

( فَاسْتَكْبَرُوا ) أي : استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له .

( وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ) جمع المجرم، والمجرم مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه العذاب والنكال .

( فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا ) يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله ، من العصا واليد وغيرها من الآيات .

كما قال تعالى في الأعراف ( قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (١٠٦) ) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنّٰظِرِينَ ) .

قوله ( بَيْضَاءٌ لِلنّٰظِرِينَ ) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

● قوله (لنناظرين) أي بياضاً يراه الناظرون رؤية تعجب من بياضها.

كما قال تعالى في سورة النمل (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي: من غير برص ولا مرض. قال الحسن البصري: أخرجها - والله - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه.

● قال ابن عطية: و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان .

● وهذه العصا كان فيها أربع آيات:

أولاً: أنه يلقيها فتكون حية تسعى، ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانياً: أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيوناً.

ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا جبالهم وعصبيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

( قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد .

كما قال تعالى ( فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُّبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) ) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ) .

كما قال تعالى في سورة الأعراف ( قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) ) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَادَا تَأْمُرُونَ ) .

● قيل سُمُّوا (ملاً) لأنهم يملؤون صدور المجالس بقامتهم الوافية، أو يملؤون صدور الناظر لأبتهتهم وجمالهم، أو أنهم يتمالؤون على العقد والحل فيتفقون عليه.

( قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا ) الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحر ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر

( وَلَا يُفْلِحُ السّٰحِرُونَ ) أي : والحال انه لا يفوز ولا ينجح الساحرون .

( قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا ) أي : تتنينا .

( عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ) أي : الدين الذي كانوا عليه .

( وَتَكُونُ لَكُمْ ) أي : لك ولهارون .

( الْكِبْرِيَاءِ فِي الْأَرْضِ ) أي : العظمة والرياسة .

( وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ) أي : ولسنا بمصدقين لكم فيما جئتما به .

• قال الزجاج : سمى الملك كبرياء ، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ، وأيضاً فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، فصار أكبر القوم .

واعلم أن السبب الأول : إشارة إلى التمسك بالتقليد ، والسبب الثاني : إشارة إلى الحرص على طلب الدنيا ، والجد في بقاء الرياسة ، ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا ( وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ) .

• وقال ابن عطية : (و الكبرياء ) مصدر مبالغ من الكبر ، والمراد به في هذا الموضع الملك ، وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين ، لأنه أعظم تكبر الدنيا .

• وقال ابن عاشور : والكبرياء : العظمة وإظهار التفوق على الناس .

والأرض : هي المعهودة بينهم ، وهي أرض مصر ، كقوله ( يريد أن يخرجكم من أرضكم ) .

ولما كانوا ظنوا تطلبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى بضمير المثني المخاطب لأن هارون كان حاضراً فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين .

وإنما شركوا هارون في هذا الظن من حيث إنه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه .

( وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنَبِّئُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ) إنما قاله لما رأى العصا واليد البيضاء واعتقد أنهما سحر .

قال تعالى في الأعراف ( قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تَوَكُّبِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ) .

• قال ابن عاشور : وأمر بإحضار جميع السحرة المتمكنين في علم السحر لأنهم أبصر بدقائقه ، وأقدر على إظهار ما يفوق حوارق موسى في زعمه ، فحضورهم مغن عن حضور السحرة الضعفاء في علم السحر لأن عملهم مظنة أن لا يوازي ما أظهره موسى من المعجزة فإذا أتوا بما هو دون معجزة موسى كان ذلك مروجاً لدعوة موسى بين دهماء الأمة .

والعموم في قوله ( بكل ساحر عليم ) عموم عربي ، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به ، أو أريد ( بكل ) معنى الكثرة ، كما تقدم في قوله ( ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ) .

• قال ابن كثير : وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى ﷺ من قبيل ما تشعبه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) .

• وقد ذكر تعالى في سورة الأعراف (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) .

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ﷺ: إن غلبوا موسى ليشينهم وليعطينهم عطاءً

جزياً. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده.

- وقد قال تعالى في سورة طه (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى). قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَمَّا تَيَسَّنَا بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى).

قوله (فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى) أي يوماً نجتمع فيه نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين.

ومعنى (سوى) أي مكان وسط تستوي أطراف البلد فيه لتوسطها بينها، ليتمكن الجميع من الحضور (قَالَ) أي موسى لهم (مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ) هو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية.

- (وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ) جميعهم (ضُحًى) أي ضحوة من النهار
- قال ابن كثير: ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح، ولهذا لم يقل ليلاً ولكن نهاراً ضحى

( فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ) أي : اطرحوا على الأرض ما معكم من حبالكم وعصيكم.

- قال ابن كثير: والحكمة في هذا -والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بمرجهم ومحالمهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لحيثه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ) أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى (فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى \* فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى).

- وقال الخازن : إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد.

- وقال القاسمي: وإنما سوغ لهم التقدم ازدياً لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً.

- قال ابن عاشور : والإلقاء : رمي شيء في اليد إلى الأرض ، وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأن أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض.

وقد ورد في آيات كثيرة أنهم ألقوا جباههم وعصيتهم ، وأنها يخيل من سحرهم أنها تسعى ، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيل الجماد حياً.

( فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ ) يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم .

( إِنَّ اللَّهَ سَبَّاطُهُ ) أي : سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدي من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلاً أو سيظهر بطلانه وفساده للناس .

( إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ) يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه .

وقد ذكر تعالى ما حدث بعد ذلك في عدة سور :

قال تعالى في الأعراف ( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَعُلُّوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُ بِهٖ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا نَنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ) - يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي: تأكل (مَا يَأْفِكُونَ) أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

( وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ) فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخرروا سجداً وقالوا (آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ).

● قوله تعالى (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) الظاهر أن قائل ذلك جميع السحرة، وقيل: بل قاله رؤساؤهم.

● قال السعدي: وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه.

● قال السعدي: ثم دعوا الله أن يشتمهم ويصبرهم فقالوا (رَبَّنَا أَفْرِغْ) أي: أفض (عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

(وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ) أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام.

● قال ابن عاشور: ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيداناً بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بوعيد فرعون، وأن همتهم لا ترجو إلا النجاة في الآخرة، والفوز بما عند الله، وقد انخدل بذلك فرعون، وذهب وعيده باطلاً، ولعله لم يحقق ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزي الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة.

وقالوا كما قال تعالى في سورة طه:

(قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)).

وقالوا كما في سورة الشعراء (قَالُوا لَا صَبِيرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ).

(وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ) أي: يبيّنه ويوضحه.

(بِكَلِمَاتِهِ) أي: بكلامه وحججه وبراهينه.

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) من آل فرعون.

● وهذا تأكيد لسنة الله - تعالى - في تنازع الحق والباطل، والصالح والفساد.

أي: أنه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين، بل يحقّه ويطله، وأنه سبحانه يحق الحق أي يثبتّه ويقويه ويؤيده بكلماته النافذة، وقضائه الذي لا يرد، ووعدّه الذي لا يتخلف ولو كرهه المُجْرِمُونَ ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل، لا تعطل مشيئة الله، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته.

وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ( فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ) يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن ملئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتوّ، وكانت له سَطْوَةٌ ومَهَابَةٌ، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً .

● قال الرازي : قوله تعالى (إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ) اختلفوا في المراد بالذرية على وجوه :

الأول : أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد.

الثاني : قال بعضهم : المراد أولاد من دعاهم ، لأن الآباء استمروا على الكفر ، إما لأن قلوب الأولاد أليين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف.

قال ابن كثير مرجحاً هذا القول : يخبر الله - تعالى - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات والحجج، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب -، على وجل وخوف منه ومن ملئه.

● قوله تعالى ( مِّنْ قَوْمِهِ ) قيل : من قوم موسى ، وقيل : من قوم فرعون .

ورجح ابن جرير أنه من قوم موسى .

لأن رجوع الضمير إلى موسى ﷺ هو الظاهر المتبادر من الآية، لأنه أقرب مذكور، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر.

● قال أبو حيان : والظاهر أن الضمير في قومه عائد على موسى ، وأنه لا يعود على فرعون ، لأن موسى هو المحدث عنه في هذه الآية ، وهو أقرب مذكور.

ولأنه لو كان عائداً على فرعون لم يظهر لفظ فرعون ، وكان التركيب على خوف منه ومن ذهب إلى أن الضمير في قومه على موسى : ابن عباس قال : وكانوا ستمائة ألف ، وذلك أن يعقوب عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين نفساً ، فتوالدوا بمصر حتى صاروا ستمائة ألف.

● وقال ابن عطية : ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد فشت فيهم السوات ، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفرط ، وقد رجوا كشفه على يد مولود يخرج فيهم نبياً ، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه وباعوه ، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به ، فكيف تعطى هذه الآية أن الأقل منهم كان الذي آمن ، فالذي يترجح بحسب هذا أن الضمير عائد على فرعون.

● وإنما ذكر الله هذا تسلياً لنبيه محمد ﷺ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به، واستمرارهم على الكفر والتكذيب، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات، كان أمراً عظيماً. ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه .

● قال السعدي : والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب، أقبل للحق، وأسرع له انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم.

( وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ) أي : وإن فرعون المتكبر متجبر في أرض مصر كلها، وإنه لمن المسرفين

المتجاوزين لكل حد في الظلم والبغي وادعاء ما ليس له.

والمتجبرون والمسرفون يحتاجون في مقاومتهم إلى إيمان عميق، واعتماد على الله وثيق، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين:

( وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ) أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه ( أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ) ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ) .

وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل .

كما في قوله تعالى ( فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ) .

وقوله تعالى ( قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ) .

وقوله تعالى ( رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ) .

وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ( إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ) .

● قال الرازي : واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ) .

● وقال الخازن : ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره .

( فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ) أي : قالوا مجيبين لنصيحة نبيهم على الله وحده لا على غيره تَوَكَّلْنَا واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .

( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أي: يا ربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين. بأن تمكنهم منا فيسومونا سوء العذاب، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل، لأننا لو كنا على الحق - في زعمهم - لما تمكنوا منا، ولما انتصروا علينا .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أي : لا تصرهم علينا ، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين ، أو لا تمتحننا بأن تعذبنا على أيديهم .

وقال مجاهد: المعنى لا تملكننا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لم نسلط عليهم؛ فيفتنوا.

وقال أبو جَلَزَر وأبو الصُّحَا : يعني لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خير منا فيزدادوا طغياناً.

● قال ابن عاشور : وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلاً في الكفر ، والكفر فتنة ، فمعنى سؤالهم أن لا يجعلهم الله فتنة هو أن لا يجعلهم سبب فتنة ، وصفوا الكفار بـ ( الظالمين ) لأن الشرك ظلم ، ولأنه يشعر بأنهم تلبسوا بأنواع الظلم : ظلم أنفسهم ، وظلم الخلائق .

( وَتَجَنَّبْ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ) ثم أضافوا إلى هذا الدعاء دعاء آخر، أكثر صراحة من سابقه في المباحة بينهم وبين الظالمين فقالوا ( وَتَجَنَّبْ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ) أي: نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط، بل نلتمس منك أيضاً أن تحجينا من شرور القوم الكافرين، وأن تخلصنا من سوء جوارهم، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .

● قال الخازن: أي: وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة.

● قال الشوكاني : وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم .

● قال الألوسي : وفي تقديم التوكل على الدعاء وإن كان بياناً لامثال أمر موسى عليه السلام لهم به تلويح بأن الداعي حقه

أن يبني دعاءه على التوكل على الله تعالى فإنه أرجى للإجابة ولا يتوهم أن التوكل مناف للدعاء لأنه أحد الأسباب للمقصود والتوكل قطع الأسباب لأن المراد بذلك قطع النظر عن الأسباب العادية وقصره على مسببها عز وجل واعتقاد أن الأمر مربوط بمشيئته سبحانه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

( وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ) أي : أوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون في طغيانه وفي إنزال العذاب بالمؤمنين- أن اتخذوا لقومكما المؤمنين بيوتاً خاصة بهم في مصر، ينزلون بها، ويستقرون فيها، ويعتزلون فرعون وجنده، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

● قال ابن الجوزي : في البيوت قولان :

أحدهما : أنها المساجد ، قاله الضحاك ، والثاني : القصور ، قاله مجاهد .

( وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ) فيها أقوال :

أحدها : اجعلوها مساجد ، رواه مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال النخعي ، وابن زيد .

وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم ، فقبل لهم : اجعلوا بيوتكم قبلة بدلا من المساجد .

والثاني : اجعلوها قِبَل القبلة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : قِبَل مكة .

وقال مجاهد : أمروا أن يجعلوها مستقبلية الكعبة ، وبه قال مقاتل ، وقتادة ، والفراء .

والثالث : اجعلوها يقابل بعضها بعضاً ، وهو مروى عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سعيد بن جبير .

والرابع : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلة لكم في الصلاة . ( زاد المسير ) .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ) قال أكثر المفسرين : كان بنو إسرائيل لا يصلّون إلا في مساجدهم

وكنائسهم وكانت ظاهرة ، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخرّبت كلها ومنعوا من الصلاة ؛ فأوحى الله

إلى موسى وهارون أن اتخذوا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر ، أي مساجد ، ولم يرد المنازل المسكونة .

هذا قول إبراهيم وابن زيد والربيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم .

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أن المعنى : واجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضاً .

والقول الأول أصح ؛ أي اجعلوا مساجدكم إلى القبلة ؛ قيل : بيت المقدس ، وهي قبلة اليهود إلى اليوم ؛ قاله ابن بحر .

وقيل الكعبة .

● وقال رحمه الله : المراد صلوا في بيوتكم سراً لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعون، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت،

والإقدام على الصلاة، والدعاء، إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله قال موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا وكان من

دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم .

( وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ) بأدائها كاملة بحضور قلب وحشوع مكملة أركانها وواجباتها وسننها .

● قال ابن عاشور : وأمرهم بإقامة الصلاة ، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى ، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء

موسى اتباعاً لإبراهيم عليه السلام وأبنائه .

والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات

فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدة رحلتهم .

( وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ) بالنصر والفلاح في الدنيا، وبالثواب الجزيل في الآخرة.

بشارة الأمة- كما يقول الألوسي- وظيفة صاحب الشريعة، وهي من الأعظم أسرّ وأوقع في النفس .

هذا، ومن التوجيهات الحكيمة التي نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان، إذا لم تنفع معهم النصيحة، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم على المحبة الصادقة، وعلى الأخوة الخالصة، وأن يجعلوا توكلهم على الله وحده وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إِنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرِهِ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

( وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ) هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون ومَلَكُهُ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً قال:

( رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ) أي: من أثاث الدنيا ومتاعها .

والزينة: اسم لما يتزين به الإنسان من ألوان اللباس وأواني الطعام والشراب، ووسائل الركوب.. وغير ذلك مما يستعمله الإنسان في زينته ورفاهيته.

● قال أبو حيان : والزينة عبارة عما يتزين به ويتحسن من الملبوس والمركوب والأثاث والمال ، ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق.

( وأموالاً ) أي: جزيلة كثيرة .

( في ) هذه .

( الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) التي نعيشها .

( رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ) -بفتح الياء -أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم، كما قال تعالى ( لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ ) .

وقرأ آخرون ( لِيُضِلُّوا ) بضم الياء، أي: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم.

● واللام في قوله ( رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ) .

قيل : هي لام العاقبة والصيرورة .

أي: أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال، ليخلصوا لك العبادة والطاعة، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال، فأزل يا مولانا هذه النعم من بين أيديهم.

● قال القرطبي : وأصح ما قيل فيها وهو قول الخليل وسيبويه أنها لام العاقبة والصيرورة ، أي لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلُّوا.

وقيل : إن هذه اللام للتعليل .

ويكون المعنى : وقال موسى مخاطباً ربه: يا ربنا إنك قد أعطيت فرعون وملاءه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا طغياناً على طغيانهم، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وشبيهه بهذه الجملة في هذا المعنى قوله ( وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَوْلَاهُمْ هُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ، إِنَّمَا مَوْلَاهُمْ هُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) .

وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال :

والصواب من القول في ذلك عندي أنها لام كي، ومعنى الكلام : ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه، ويضلوا عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم، وهذا كما قال تعالى ( لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا. لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) .

وقال أبو حيان : واللام في ( ليضلوا ) الظاهر أنها لام كي على معنى : آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج ، فكان الإتيان لكي يضلوا.

وقيل : إن هذه اللام هي لام الدعاء، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية .

فيكون المعنى : وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا اللهم يا ربنا زدهم ضلالاً على ضلالهم.

( رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ ) أي: أتلفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما بجعلها حجارة، غير منتفع بها.

● قال الشوكاني : قال الزجاج : طمس الشيء : إذهابه عن صورته ؛ والمعنى : الدعاء عليهم بأن يحرق الله أموالهم ، ويهلكها وقرئ بضم الميم من اطمس .

( وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ ) بأن تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك، حتى يأتيهم العذاب الأليم الذي لا ينفع عند إتيانه إيمان، ولا تقبل معه توبة، لأنهما حدثا في غير وقتها.

● قال الشوكاني : ( واشدد على قلوبهم ) أي : اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ، ولا تشرح للإيمان.

( فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) قيل : أنه دُعَاءٌ عليهم أيضاً ، كأنه قال : اللهم فلا يؤمنوا .

قاله الفراء ، وأبو عبيدة ، والزجاج.

وقيل : هو عطف على قوله ( لِيَضْلُوا عن سبيلك ) فالمعنى: أنك آتيتهم ليضلوا فلا يؤمنوا، حكاه الزجاج عن المبرد. ( زاد المسير )

● وقد استشكل بعض أهل العلم ما في هذه الآية من الدعاء على هؤلاء ، وقال : إن الرسل إنما تطلب هداية قومهم وإيمانهم.

وأجيب بأنه لا يجوز لنبى أن يدعو على قومه إلا بإذن الله سبحانه ، وإنما يأذن الله بذلك لعلمه بأنه ليس فيهم من يؤمن ، ولهذا لما أعلم الله نوحاً عليه السلام بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، قال ( رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ) .

● قال ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال ( رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ) .

● وقال أبو حيان : ... أو علم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال ، أو علم ذلك بوحي من الله تعالى ، دعا الله تعالى عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول : لعن الله إبليس وأحزى الكفرة.

كما دعا نوح على قومه حين أوحى إليه ( أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ) وقدم بين يدي الدعاء ما آتاهم الله من النعمة في الدنيا وكان ذلك سبباً للإيمان به ولشكر نعمه ، فجعلوا ذلك سبباً لجحوده وكفر نعمه.

● وقال السعدي : قال ذلك، غضباً عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدوا عن سبيله ، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

● ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التي أمّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى :

( قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا ) أي : قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

● جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون ، وفيما تقدّم أضافها إلى موسى وحده :

فقيل : إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى ، فسمي ها هنا داعياً ، وإن كان الداعي موسى وحده ، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمن منزلة الداعي . ويجوز أن يكونا جميعاً داعيين ، ولكن أضاف الدعاء إلى موسى في أول الكلام لأصالته في الرسالة . ( فتح القدير ) .

● **قال السعدي** : هذا دليل على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن ، يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء .

( فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ) أي: كما أحييت دعوتكما فاستقيما على أمري.

( وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ) أي : جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه ييساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط.

● **قال ابن كثير** : وذلك أن الله أوحى إلى موسى، لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

قال تعالى ( فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزَلَّغْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأُجِينَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ) .

( فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ) أي : لحقهم يقال : أتبعه حتى لحقه .

( بَغِيًّا وَعَدُوًّا ) البغي طلب الاستعلاء بغير حق ، والعدو الظلم .

( حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ ) وجزم بهلاكه .

( قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ) وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو .

( وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ) أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

قال الله تعالى - مبينا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له-:

( آيَاتُ ) تؤمن، وتقر برسول الله ، في هذا الوقت .

( وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ) وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ؟

( وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ) أي: في الأرض الذين أضلوا الناس .

فوله تعالى ( أَلَا أَلَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ) .

**قيل** : هو من قول الله تعالى ، **وقيل** : هو من قول جبريل ، **وقيل** : ميكائيل ، صلوات الله عليهما ، أو غيرهما من الملائكة له صلوات الله عليهم.

● **قال الحازن** : والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام ، وقيل الملائكة ، وقيل : إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى ( فاليوم ننحيك ببدنك ) . والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ( لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة ) .

● **وقال الشوكاني** : وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل : هي من قول الله سبحانه ، وقيل : من قول جبريل ،

وقيل : من قول ميكائيل ، وقيل : من قول فرعون ، قال ذلك في نفسه لنفسه .

- فأمن حيث لا ينفعه الإيمان : فعند الاحتضار لا تقبل التوبة .

قال تعالى ( وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ) .

فقوله تعالى (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) أي: وليس قبول التوبة ممن ارتكب السيئات والمنكرات واستمر عليها، (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ) أي: حتى إذا فاجأهم الموت وحضرت أسبابه وعلاماته وبلغت الحلقوم ، (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) أي: قال في هذه الحال حضور الموت ، واليأس من الحياة ، إني تبت الآن ، فهؤلاء لا تنفعهم توبتهم في هذه الحال ، لأن توبتهم توبة اضطرار لا اختيار كما قال تعالى عن فرعون (حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

وقال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَعْجَلُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ) أي تبلغ روحه رأس حلقه ، وذلك وقت المعاينة الذي يرى فيه مقعده من الجنة أو مقعده من النار ؛ فالمشاهد لطلوع الشمس من مغربها مثله .

- قال السعدي : فلا ينفك الإيمان كما جرت عادة الله، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم، صار إيماناً مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفك، إنما هو الإيمان بالغيب .

( فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ) قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى ( فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ) أي: نرفعك على نَشْر من الأرض ( بِبَدَنِكَ ) قال مجاهد: بجسدك .

- قال الماوردي : قوله تعالى ( فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ) معنى ننجيك نلقيك على نجوة من الأرض ، والنجوة المكان المرتفع . ( لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ) أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء .

- قال الشوكاني : قوله تعالى ( لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ) هذا تعليل لتنجيته ببذنه ، وفي ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى ، والمراد بالآية : العلامة ، أي لتكون لمن خلقك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنتك لست كما تدعي ، ويندفع عنهم الشك في كونك قد صرت ميتاً بالغرق .

وقيل : المراد ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك آية من آيات الله ، يعتبر بها الناس ، أو يعتبر بها من سيأتي من الأمم إذا سمعوا ذلك ، حتى يحدروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه ، فإن هذا الذي بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية ، واستمر على ذلك دهرًا طويلاً كانت له هذه العاقبة القبيحة .

- قال الرازي : قوله تعالى ( لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ) ففيه وجوه :

الأول : أن قوماً ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت ، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجهم من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم .

وقيل كان مطرحه على ممر بني إسرائيل .

الثاني : لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله ( أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ) ليكون ذلك زجراً للخلق عن مثل طريقته ، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون .  
( وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ) أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون ، فلذلك تمر عليهم وتكرر فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

كما قال تعالى ( وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) .  
وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل .

● وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء :

عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه .

### الفوائد :

- ١- إثبات الرسل .
  - ٢- أن الله يرسل الرسل للأمم رحمة بهم وهداية .
  - ٣- ن لكل أمة رسول .
  - ٤- إثبات رسالة موسى وهارون .
  - ٥- أن كل رسول يأتي بآية تدل على صدق ما جاء به .
  - ٦- خطر الاستكبار ورد الحق .
  - ٧- أن أهل الباطل دائماً يهتمون أصحاب الدعوات بالسحر والجنون .
  - ٨- تسليية لكل داعية .
  - ٩- شجاعة موسى بالرد على باطلهم .
  - ١٠- الشبهة والدعوة الباطلة التي يدعيها كثير من أهل الباطل : هذا ما وجدنا عليه الآباء .
- قال تعالى ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ) ( قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ) [ الزخرف : ٢٣ - ٢٤ ] .  
فأمرهم الله تعالى بقوله : ( اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ) [ الأعراف : ٣ ] .  
وقال تعالى : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ) وقال : ( أَوْلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ) .
- ١١- شدة طغيان فرعون وعتوه .
  - ١٢- انتصار الحق على الباطل .
  - ١٣- يقين موسى الشديد بوعد ربه ، وهذا اليقين يأتي بقوة الإيمان والتعلق بالله .
  - ١٤- أن الحق منتصر ، ولو ظهر لبعض الناس في أوقات معينة أن النصر للباطل .
- قال ابن القيم : الحق منصور وممتحنٌ فلا تعجب فهذه سنة الرحمن .
- ١٥- حكمة الله أن أهل الحق دائماً أقل من أهل الباطل .
  - ١٦- من أعظم علامات الإيمان التوكل على الله .

- ١٧- من أراد النصر والتمكين فليتكلم على الله .  
 ١٨- الأمر بإقامة الصلاة .  
 ١٩- أن الصلاة مفروضة على من قبلنا .  
 ٢٠- تبشير لكل مؤمن بكل خير بالدنيا والآخرة .  
 ٢١- أن الكافر قد ينعم ويعطى أكثر من المؤمن .  
 ٢٢- أن كثرة المال والغنى ليس دليلاً على رضا الله تعالى .  
 ٢٣- أن الأموال والنعم قد تكون أحياناً استدراجاً .  
 ٢٤- آية من آيات الله في إنقاذ أوليائه وإهلاك المكذبين .  
 ٢٥- من آيات الله انفلاق البحر لموسى لكي ينجو من فرعون وجنوده .  
 ٢٦- أن التوبة وقت الغرغرة لا تنفع .  
 ٢٧- عند الموت كل أحد يعرف الحق ويتوب ، لكن لا عبرة بذلك .  
 ٢٨- من شروط قبول التوبة أن تكون قبل الغرغرة .  
 ٢٩- ذم من لا يعتبر ولا يتفكر في آيات الله .  
 ٣- ينبغي على الإنسان أن يتفكر ويعتبر بما يرى من آيات الله . الأحد : ٢٠ / ٨ / ١٤٣٩ هـ

( وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوِّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ) .  
 [ يونس : ٩٣ ] .

( وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوِّأً صِدْقٍ ) قوله: بَوَّأْنَا أي: أنزلنا وأسكننا، من التبوؤ، وهو اتخاذ المباءة أي: المنزل والمسكن. وفي إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق فقالوا: رجل صدق إذا كان متحلياً بمكارم الأخلاق.

- قال أبو حيان : والظاهر أنّ بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى ونجوا من الغرق ، وسياق الآيات يشهد لهم. وقيل : هم الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ من بني إسرائيل قريظة والنضير وبني قينقاع
- قال الرازي : أي أسكناهم مكان صدق أي مكاناً محموداً .
- وقال ابن عطية : المعنى لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار وحللناهم من الأماكن أحسن محل ، و { مبوأ صدق } أي يصدق فيه ظن قاصده وساكنه وأهله .  
 ويعني بهذه الآية إحلال بلاد الشام وبيت المقدس ، قاله قتادة وابن زيد .  
 وقيل بلاد مصر والشام ، قاله الضحاك .
- والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لم يعودوا إلى مصر، على أن القرآن كذلك (وأورثناها بني إسرائيل) يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون (أورثناها) معناه الحالة من النعمة وإن لم يكن في قطر واحد. (تفسير ابن عطية)
- وقال الخازن : المعنى : أنزلناهم منزلاً محموداً صالحاً وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول العرب : هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملاً صالحاً ، لا بد أن يصدق

الظن فيه .

● **قال الألوسي :** والمراد بهذا المبدأ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك: الشام ومصر، فإن بني إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى - عليه السلام - وهم المرادون هنا، ملكوا ذلك حسباً ذهب إليه جمع من الفضلاء .

وقيل : المراد به الشام وبيت المقدس ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك .

( وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ) أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً .

والمعنى: ولقد أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلاً صالحاً مرضياً، فيه الأمان، والاطمئنان لهم، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التي أحللناها لهم .

( فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ) توبيخ لهم على موقفهم الجحودي من هذه النعم التي أنعم الله بها عليهم .

أي : أنهم ما تفرقوا في أمور دينهم وديناهم على مذاهب شتى، إلا من بعد ما جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي أمرهم الله تعالى أن يتلوه حق تلاوته، وان لا يستخدموه في التأويلات الباطلة .

فالجملمة الكريمة توجبهم على جعلهم العلم الذي كان من الواجب عليهم أن يستعملوه - في الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم .

● **قال الخازن :** يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم فلما بعث الله محمداً ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغياً وحسداً .

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقاً فوضع العلم مكان العلوم .

● وفسر بعض العلماء العلم هنا بالتوراة ، أي : أن اختلفهم لم يكن عن جهل بالحق ، وخفاء معاملة ، وإنما كان بسبب الهوى والبغي .

وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى ( وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) فالتفرق والاختلاف إنما وقع لهم بعدما اتضح لهم الحق وظهر ، ولهذا قال تعالى في موضع آخر ( فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ) .

● **قال بعض العلماء :** المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام .

فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين .

قال ابن عباس : وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات .

والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيباً في البلاد ، ثم إنهم بقوا على دينهم ، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم .

والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما سماه علماً ، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور .

وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان :

**الأول :** أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس ، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسداً وبغياً وإيثاراً لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم ، فبهذا الطريق صار نزول القرآن سبباً لحدوث الاختلاف فيهم .

الثاني : أن يقال : إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفاراً محضاً بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم ، فعند ذلك اختلفوا فأمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم.

● قال السعدي : قوله تعالى ( فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ) وهذا هو الداء، الذي يعرض لأهل الدين الصحيح. وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قرّة عين اللعين. وإلا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت، ويموت من دينهم، بسبب ذلك ما يموت؟.

فنسألك اللهم، لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم ويرأب صدعهم، ويرد قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام. ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) أي : يفصل بينهم يوم القيامة ، فيجازي أهل الحق بما يستحقونه من ثواب، ويجازي أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب.

● قوله تعالى (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) سمي بذلك:

أولاً: لأن الناس يقومون من قبورهم.

قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ).

ثانياً: ولقيام الأشهاد.

لقوله تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

ثالثاً: ولقيام الملائكة.

لقوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا).

الفوائد :

- ١- نعم الله الكثيرة على بني إسرائيل .
- ٢- تذكير الله بالنعم لعل الناس يتعظون ويتقون .
- ٣- التذكير بالنعم من أساليب القرآن . ( ترغيب وترهيب ) .
- ٤- خطر الأهواء والتعصب وأنها من أسباب الاختلاف والتفرق .
- ٥- ذم التفرق والاختلاف .
- ٦- إثبات يوم القيامة .
- ٧- إثبات الحساب والجزاء .

( فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) ) .  
[ يونس : ٩٤ - ٩٧ ] .

( فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ) المراد مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ هنا: ما أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ من قصص حكيمة تتعلق بأنبياء الله تعالى ورسوله .  
● قال الألوسي : وإنما خصت القصص بالذكر، لأن الأحكام المنزلة عليه ﷺ ناسخة لأحكامهم، ومخالفة لها فلا يتصور سؤالهم عنها .

والمراد بالكتاب: جنسه فيشمل التوراة والإنجيل .

والمعنى: فإن كنت أيها الرسول الكريم- على سبيل الفرض والتقدير- في شك مما أنزلنا إليك من قصص حكيمة كقصة موسى ونوح وغيرهما ( فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ) وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ما قصصناه عليك ثابت في كتبهم . فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول ﷺ وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير، لا على سبيل الثبوت .  
وقيل: الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره .

كقوله تعالى ( يا أيها النبي اتق الله وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ) وكقوله ( لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ) .  
وكقوله ( يا عيسى ابن مريمَ أءنتَ قلتَ للنَّاسِ ) ومن الأمثلة المشهورة : إياك أعني واسمعي يا جاره .  
والذي يدل على صحة هذا القول :

قوله تعالى في آخر السورة ( يا أيها الناس إن كُنتُمْ فِي شكٍّ مِّن دِينِي ) فبين أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز ، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح .

● قال ابن عطية : والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض .

● قال الشوكاني : ... وقيل: الشكُّ هُوَ ضيقُ الصَّدْرِ، أي: إن ضاقَ صدْرُكَ بكُفْرِهِ هُؤُلَاءِ فَاصْبِرْ وَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ يُخْبِرُوكَ بِصَبْرٍ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى أَدَى قَوْمِهِمْ .

وقيل: معنى الآية: الفَرْضُ والتَّعْدِيرُ، كأنَّهُ قَالَ لَهُ: فَإِنْ وَقَعَ لَكَ شكٌّ مَثَلًا، وَخَلَّلَ لَكَ الشَّيْطَانُ خَيَالًا مِنْهُ تَعْدِيرًا، فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ، فَإِنَّهُمْ سَيُخْبِرُونَكَ عَنْ نُبُوتِكَ وَمَا نَزَلَ عَلَيْكَ، وَيَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ لِأَنََّّهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ، وَقَدْ زَالَ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مَا كَانَ مَقْتَضِيًا لَكُمْ عِنْدَهُمْ .

● قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن كل من حالته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

● قال السعدي : قوله تعالى ( فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ) أي: أسأل أهل الكتب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم، فإن قيل: إن كثيرًا من أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا رسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته .

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهانًا على صدقه، فكيف يكون ذلك؟  
فالجواب عن هذا، من عدة أوجه:

**منها:** أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم. وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الريانيين، كـ "عبد الله بن سلام"، وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه، ومن بعده و "كعب الأحرار" وغيرهما.

**ومنها:** أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه. فإذا كان موجوداً في التوراة، ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول.

**ومنها:** أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد. ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه، فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستحيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

**ومنها:** أنه ليس أكثر أهل الكتاب، رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى .

( لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ) الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه .

( فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ) التقدير: أقسم لقد جاءك الحق الذي لا لبس فيه من ربك لا من غيره، فلا تكونن من الشاكين المترددين في صحة ذلك.

( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ) تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين له ﷺ من قومه ، أي: ولا تكونن من القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا، فتكون بذلك من الخاسرين الذين أضاعوا دنياهم وأحراهم.

● **قال الألوسي :** وفائدة النهي في الموضوعين التهيج والإلهاب نظير ما مر ، والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحدورية إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك .

● **وقال الشوكاني :** قوله تعالى ( فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ) وفي هذا التعريض من الزجر للمُتَمَرِّينَ وَالْمُكَذِّبِينَ مَا هُوَ أْبْلَغُ وَأَوْقَعُ مِنَ النَّهْيِ لَهُمْ أَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ بِحَيْثُ يُنْهَى عَنْهُ مَنْ لَا يُتَصَوَّرُ صُدُورُهُ عَنْهُ، فَكَيْفَ يَمُنُّ بِمَنْ يُكْفِرُ مِنْهُ ذَلِكَ.

● **وقال السعدي :** وحاصل هذا أن الله نهي عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه.

وأشد من ذلك، التكذيب به، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار، وهو عدم الريح أصلاً وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه، علماً وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانتفى عنهم الخسار.

( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر، وجحودهم للحق.

والمراد بكلمة ربك: حكمه النافذ، وقضاؤه الذي لا يرد، وسنته التي لا تتغير ولا تتبدل في الهداية والإضلال.

والمراد بالآية: المعجزات والبراهين الدالة على صدق الرسول ﷺ

أي : إن الذين حكم الله- تعالى- عليهم بعدم الإيمان- لأهم استحبوا العمى على الهدى- لا يؤمنون بالحق الذي جئت به- أيها الرسول الكريم.. مهما سفت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك..

ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب.

وهنا سيكون إيمانهم كلاً إيمان، لأنه جاء في غير وقته، وصدق الله إذ يقول: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا.. «١» .

وسيكون حالهم كحال فرعون، الذي عند ما أدركه الغرق قال آمنت.

● قال الشوكاني : وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ حَقٌّ عَلَيْهِمْ قَضَاءُ اللَّهِ وَقَدْرُهُ : بِأَنَّهُمْ بُصِرُوا عَلَى الْكُفْرِ ، وَمُؤْتُونَ عَلَيْهِ ، لَا يَقَعُ مِنْهُمْ الْإِيمَانُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَإِنْ وَقَعَ .

مِنْهُمْ مَا صُورَتْهُ صُورَةُ الْإِيمَانِ ، كَمَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ فَهُوَ فِي حُكْمِ الْعَدَمِ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ وَالتَّنْزِيلِيَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَحَقَّ مِنْهُ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَقَعُ مِنْهُمْ مَا صُورَتْهُ صُورَةُ الْإِيمَانِ وَلَيْسَ بِإِيمَانٍ ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِهِ .

● وقال السعدي : ... فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً ، وغياً إلى غيهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق، لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم، وأبصارهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، الذي وعدوا به. فحينئذ يعلمون حق اليقين، أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد . ( تفسير السعدي ) .

وقد بين القرآن أن هذا الطبع وهذا الختم لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله عز وجل يسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات، قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ) (الباء) في قوله (بِكُفْرِهِمْ) سببية، فبين أن هذا الطبع بسبب كفرهم، وكقوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) وكقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) وكقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا).

الفوائد :

١- تهديد من يشك في آيات الله .

٢- توجيه الخطاب للنبي ﷺ وإن المراد غيره لتعظيم الأمر وتهويله .

٣- وجوب اليقين فيما أنزل الله من القصص .

٤- إثبات علو الله تعالى .

٥- أن القرآن منزل غير مخلوق .

٦- قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن كل من حالجته شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم .

٧- تحريم التكذيب بآيات الله .

٨- وجوب الإيمان بالله تعالى .

( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ) .  
[ يونس : ٩٨ ] .

( فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ) أي: ما آمن أهل قرية من القرى الهالكة في وقت ينفعهم إيمانهم فيه، إلا قوم النبي يونس عليه الصلاة والسلام، آمنوا كلهم في وقت ينفعهم فيه الإيمان، حين رأوا آية تدل على العذاب قبل نزوله بهم .  
● قال ابن كثير : يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكاملها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم .

كما قال تعالى ( يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) .  
وقال تعالى ( كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ) .  
وقال تعالى ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ )  
والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيهم من سلف من القرى . ( تفسير ابن كثير ) .  
وكما قال تعالى ( فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ \* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ) .

وقال تعالى ( حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي \* أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ) .  
والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران .

● (و لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ، كناية عن التغليب؛ لأن أهل القرى قد انقضوا، وذلك أن أصل معنى (لولا) التخصيص، وهو طلب الفعل بحثاً، فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليب، والتنديم، والتوبيخ على تفتوته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعل مضى؛ فهي هنا مستعملة في لازم التوبيخ، كناية عن التغليب .

( إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ) إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أُنذروهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أُنذروهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى ( إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ) . ( ابن كثير ) .

● فقول ابن كثير : بعد ما عاينوا أسبابه ، أي حين رأوا آية تدل على العذاب قبل نزوله بهم .  
ومن ذهب إلى القول : وهو أنهم رأوا علامات دالة على العذاب دون العذاب عينه ، فأمنوا فتاب الله عليهم .  
الزجاج ، والواحدي ، وابن عطية ، والرازي ، والقرطبي ، وابن تيمية ، وابن كثير ، والشوكاني ، وابن عاشور .  
وذهب بعض العلماء : إن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم لما آمنوا بعد معاينة العذاب .  
وبهذا قال : الطبري ، والسعدي .

● قال السعدي : قوله (إلا قوم يونس لما آمنوا) بعدما رأوا العذاب (كشفتنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا وامتتعتناهم إلى

حين فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا. قال الله تعالى ( وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ) إلى قوله ( وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ \* فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ) ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نوحوا عنه .

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه والله أعلم . ( تفسير السعدي ) .

● قال الماوردي : قوله تعالى ( كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) وفيه وجهان :

أحدهما : أنهم تابوا قبل أن يروا العذاب فلذلك قبل توبتهم ، ولو رأوه لم يقبلها كما لم يقبل من فرعون إيمانه لما أدركه الغرق.

الثاني : أنه تعالى خصهم بقبول التوبة بعد رؤية العذاب ، قال قتادة : كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل .

● قال ابن عطية : وذهب الطبري إلى أن قوم يونس خصوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاينة العذاب ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين وليس كذلك ، والمعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون ، وأما قوم يونس فلم يصلوا هذا الحد .

وقال القرطبي : وقال الطبري : خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب ؛ وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين .

وقال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان .

قلت : قول الزجاج حسن : فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون ، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك ، وقوم يونس تابوا قبل ذلك . ويعضد هذا قوله عليه السلام : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرر .

والغررة الحشرجة ، وذلك هو حال التلبس بالموت ، وأما قبل ذلك فلا .

وقد روى معنى ما قلناه عن ابن مسعود ، أن يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد ؛ وهذا يدل على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب .

ويكون معنى ( كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ) أي العذاب الذي وعدهم به يونس أنه ينزل بهم ، لا أنهم رأوه عياناً ولا مخيلة ؛ وعلى هذا لا إشكال ولا تعارض ولا خصوص ، والله أعلم .

وبالجملة فكان أهل نينوى في سابق العلم من السعداء . ( تفسير القرطبي ) .

● وقال الخازن : واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عياناً أم لا :

فقال بعضهم : رأوا دليل العذاب فأمنوا ؛ وقال الآخرون إنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله ( كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ) والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه .

● اختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين :

أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية .

والقول الثاني فيهما لقوله تعالى ( وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ) فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخرى، وهذا هو الظاهر، والله أعلم .

● قال الشنقيطي : قَوْلُهُ تَعَالَى (إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ظَاهِرٌ

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ إِيْمَانَ قَوْمٍ يُؤْتَسَرُ مَا نَفَعَهُمْ إِلَّا فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، لِقَوْلِهِ: كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخُرِّيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَيُفْتَهُمْ مِنْ مَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ فِي قَوْلِهِ: ( فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ اسْمَ الْإِيْمَانِ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ فِي سُورَةِ «الصَّافَّاتِ» ، وَالْإِيْمَانُ مُنْقَذٌ مِنْ غَدَابِ الدُّنْيَا وَعَدَابِ الْآخِرَةِ، كَمَا أَنَّهُ بَيَّنَّ فِي «الصَّافَّاتِ» أَيْضًا كَثْرَةَ عَدَدِهِمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ) .

#### الفوائد :

١- تكذيب الأمم لرسولهم .

٢- أن الإيمان لا ينفع عند معاينة العذاب .

٣- أن الإيمان والتوبة تنفع وتقبل إذا كانت قبل نزول العذاب .

٤- حكمة الله في جعل قوم يونس يتوبون ويرجعون .

٥- أن الهداية بيد الله .

٦- أن الموت نهاية كل حي .

فإن الله كتب الموت على كل نفس:

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشْبَدَةٍ) وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ) .

[ يونس : ٩٩-١٠٠ ] .

-----

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ) يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى .

كما قال تعالى ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) .

وقال تعالى ( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ) .

وقوله تعالى ( وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ) .

وقوله تعالى ( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ) .

● قال ابن عاشور : قوله تعالى ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ) عطف على جملة ( إن الذين حققت عليهم

كلمات ربك لا يؤمنون ) لتسلية النبي ﷺ على ما لقيه من قومه.

( أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ) أي: تلزمهم وتلحظهم .

( حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله ( يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ

عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ) .

كما قال تعالى ( لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ) .

وقال تعالى ( لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ) .

وقال تعالى ( إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ) .

وقال تعالى ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ) .

وقال تعالى ( فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله .

● **قال ابن عطية :** المعنى أن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم ، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك ، وادع ولا عليك فالأمر محتوم ، أفتريد أنت أن تكفره الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتضطرهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره .

● **قال ابن عاشور :** والاستفهام في ( أفأنت تُكفره الناس ) إنكاري ، فنزل النبي ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتى ترتب على ذلك التنزيل إنكاره عليه .

● **قال الحازن :** وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لأنه كان حريصاً على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم .

( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ) تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله تعالى أي : وما صح وما استقام لنفس من الأنفس، أن تؤمن في حال من الأحوال ( إلا بإذن الله ) أي: إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته .

( وَجَعَلَ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ) معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد، والرجس: يطلق على الشيء القبيح المستقدر .

والمعنى: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان، ويجعل الرجس ، أي : الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيل والشرور .

● **قال الشوكاني :** والمراد بالذين لا يعقلون هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله ، ولا يتفكرون في آياته ، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة .

● **قال ابن عطية :** قوله تعالى ( الرَّجْسَ ) وهو في هذه الآية بمعنى العذاب .

● **وقال ابن عاشور :** والرجس : حقيقته الخبث والفساد ، وأطلق هنا على الكفر ، لأنه خبث نفساني ، والقرينة مقابلته بالإيمان كالمقابلة التي في قوله ( فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً إلى قوله ( فزادتهم رجساً إلى رجسهم ) ، والمعنى : ويوقع الكفر على الذين لا يعقلون .

والمراد نفي العقل المستقيم ، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحق ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة .

#### الفوائد :

١- حكمة الله في عدم إيمان كل الناس .

٢- إثبات الحكمة لله تعالى .

٣- لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه .

٤- ينبغي على الداعية ألا يحزن إن لم يؤمن الناس ، لأن الله كتب عليهم .

( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) .

[ يونس : ١٠١ - ١٠٣ ] .

( قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أي : قل - أيها الرسول الكريم- لقومك: انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شمس وأقمار، وكواكب ونجوم، وسحاب وأمطار ... وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأحجار، ومن جبال وأشجار، ومن حيوانات ودواب متنوعة. انظروا إلى كل ذلك وتفكروا، فإن هذا التفكير يهدي أصحاب العقول السليمة إلى أن لهذا الكون إلهًا واحدًا عليمًا قديرًا، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

- قال ابن كثير : يرشدُ تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإبلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزهار، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.
- وقال ابن عاشور : وقد عمم ما في السموات والأرض لتتوجه كل نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالاً عليه لديها.
- قال ابن القيم: الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:

أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكير في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ ...).

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن

والثاني كقوله (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ).

- وقال رحمه الله : مبيناً من يعتبر بآيات الله الكونية والشرعية:

قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) وقال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) فأخبر عن آياته المشهودة العيانة أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الإيمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والإنابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى) وقال في الساعة (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا).

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاه فلا تنفعه الآيات العيانة ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسول وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

( وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ) أي: وأي شيء يُجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسول بآياتها وحججها

وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال ( إِنَّ الَّذِينَ حَمَتَّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ) .

( فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ) أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم .

● قال القرطبي : الأيام هنا بمعنى الوقائع، يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم قال قتادة: يعنى وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما، كقوله- تعالى- وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام .

( قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ) أمر من الله- تعالى- لنبيه ﷺ بأن يستمر في تهديدهم ووعيدهم.

أي: قل- يا محمد- لهؤلاء الجاحدين للحق الذي جئت به: إذا فانتظروا العذاب الذي نزل بالسابقين من أمثالكم، إني معكم من المنتظرين لوعد ربي لي، ولوعيده لكم.

( ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ) الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

( وَالَّذِينَ آمَنُوا ) وننجي- أيضاً- الذين آمنوا برسولنا وصدقوهم .

( كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ) ونهلك المكذبين .

الفوائد :

١- الحث على الاعتبار والتفكر في مخلوقات الله وآياته العظيمة الدالة على وحدانيته .

٢- لا تنفع الموعظة مهما بولغ فيها عبداً كتب أولاً أنه من أهل النار .

٣- تهديد لكل ظالم مكذب ، وأنهم لا ينتظرون إلا ما حل بمن قبلهم من العذاب والنكال .

٤- وعد الله الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو : إنجاء المؤمنين وهلاك المكذبين .

( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ( ١٠٤ ) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ( ١٠٥ ) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ( ١٠٦ ) ) .

[ يونس : ١٠٤ - ١٠٦ ] .

( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ) الخطاب للنبي ﷺ أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك .

( إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ) أي : إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي .

( فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله وهي هذه الأصنام ، لأنها لا تخلق ولا ترزق،

ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

● وجوب البراءة من الشرك وأهله ، والبراءة من الشرك أقسام :

أولاً : البراءة القلبية :

وهي أن تبغض المشركين والشرك بقلبك وتكرههم وتمنى زوالهم كبغض النصارى واليهود والهندوس .

وحكم هذا القسم فرض لازم ولا يمكن أن يسقط عن المسلم .

والدليل على ذلك حديث أبي مالك الأشجعي ( من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله تعالى ) .

**ثانياً : براءة اللسان :**

وذلك بالتصريح بأنك تبغض الكفار والتصريح أن دينهم باطل وأنهم كفار .  
والدليل قوله تعالى : ( قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ) قل : أي بلسانك .  
وقوله تعالى : ( وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ) .  
وهذا القسم واجب مع القدرة لقوله تعالى : ( فاتقوا الله ما استطعتم ) ويجب عليه الهجرة إن استطاع .

**ثالثاً : براءة الجوارح .**

وذلك بمجاهدتهم بالجوارح ، وتكسير معبوداتهم ومساجدهم وقتلهم .  
والدليل قوله تعالى : ( يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ) .  
وقوله ﷺ ( من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ... ) رواه مسلم .  
وهذا القسم يجب مع القدرة ويسقط مع العجز .

( وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ) أي : ولكن أعبد الله وحده لا شريك له .

الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ) وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم .

● **قال السعدي :** أي هو الله الذي خلقكم ، وهو الذي يميّتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم ، فهو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

● **قال الحازن :** والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة :

أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميّتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً، فكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على الباقي .

وقيل : لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذا المقام ليكون أقوى في الزجر والردع .

وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم .

● **وقال ابن عطية :** ... ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه ( الذي يتوفاكم ) لما فيها من التذكير للموت وقرع النفوس به ، والمصير إلى الله بعده والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة .

( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب .

( وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ) أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفاً ، أي: منحرفاً عن الشرك؛ ولهذا قال ( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) وهو معطوف على قوله ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) .

والحنيف: هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام.

● وخص الوجه بالذكر، لأنه أشرف الأعضاء.

والمعنى: أن الله سبحانه أمره بالاستقامة في الدين ، والثبات عليه، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال.

● **قال الألوسي :** إقامة الوجه للدين، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى، والإعراض عما سواه، فإن من أراد أن

ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالاً ، إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين، فالمراد بالوجه الذات ، أي : اصرف ذاتك وكليتك للدين .  
( وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده وهو معطوف على أقيم .

أي : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله تعالى وحده واثبت على ذلك، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

● فلا تكونن من المشركين : لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليّ ، وأوجب الواجبات.

والشرك: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

● والحُفْ: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف: المائل والجنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رحله ميل سمي بذلك تفاعلاً، وقيل لمجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُمدَ إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى: (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وقال: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وهكذا فليكن أولياء الله.

● والحنيفية لها في الشرع معنيان: أحدهما: الإسلام، والثاني: خاص: وهو الإقبال على الله بالتوحيد بالميل عن ما سواه. وهي دين الأنبياء جميعاً، وخصت بالإضافة إلى إبراهيم، لأن إبراهيم أكمل الخلق تحقيقاً لها مع تقدمه أبوةً على نبينا محمد المشارك له في كمال التحقيق للحنيفية.

وقد قال تعالى في سورة النساء (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) .

(يَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) معناه أحلص دينه لله وخضع له وتوجه إليه بالعبادة (وَهُوَ مُحْسِنٌ) الإحسان هنا: الموافقة للشرعية، فيكون في الآية دليل على شرطي العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة.

● قال ابن كثير: قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ) أحلص العمل لربه عز وجل، فعمل إيماناً واحتساباً (وَهُوَ مُحْسِنٌ) أي: اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق.

وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدوئهما، أي: يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متبعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمن فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعتهما فهو عمل المؤمنين

( وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ) أي : ولا تدع من دون الله في أي وقت من الأوقات ما لا يَنْفَعُكَ إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب وَلَا يَضُرُّكَ إذا تركته وأهملته ، وإنما النافع الضار هو الله .

( فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ) أي : فَإِنْ فَعَلْتَ شيئاً مما نهينك عنه فَإِنَّكَ إِذَا تكون من الظَّالِمِينَ الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك، لإشراكها مع الله تعالى آلهة أخرى.

وهذا الظلم هو الشرك ، كما قال تعالى ( إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!!؟

● الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشدّه.

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين. قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألّه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين ، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

#### الفوائد :

- ١- أن النبي ﷺ عبد يؤمر وينهى .
  - ٢- وجوب البراءة من الشرك وأهله .
  - ٣- وجوب عبادة الله تعالى وحده .
  - ٤- أن القادر على الإحياء والإماتة هو المستحق للعبادة .
  - ٥- تهديد الكفار والظلمة بالموت .
  - ٦- وجوب إقامة الدين كاملاً لله تعالى .
  - ٧- أن التوحيد نفي وإثبات .
  - ٨- من أعظم الصفات عدم الشرك ولذلك وصف الله إبراهيم بقول (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمِمَّا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).
  - ٩- تحريم دعاء غير الله ، وأنه شرك ، ويؤخذ من الآية من وجهين :
- أحدهما : في قوله (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فهذا نهي والنهي للتحريم ، والمنهي عنه إيقاع عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ، فإذا جعلت لغيره كان ذلك شركاً .
- والآخر : في قوله (فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) أي : من المشركين ، لأن الشرك أعظم الظلم ، فمن دعا غير الله فقد وقع في فعلٍ من أفعال المشركين .
- ١٠- أن دعاء غير الله شرك .
  - ١١- وجوب دعاء الله ، لأنه بيده كل شيء .

( وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) . )  
 [ يونس : ١٠٧ ] .

( وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ) كمرض وتعب وحزن .

وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها :

( فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ) أي : لهذا الضر إلا هو سبحانه، لأن الخلق، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدا، لم يقدروا على شيء من ضرره، إذا لم يرده الله .

وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي إذا مس بضر، كفقر ومرض، ونحوها فلا كاشف إلا هو .

( وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ) كمنحة وغنى وقوة .

( فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ) أي : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك .

كما قال تعالى ( مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) .

● وعبر سبحانه بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .

( يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ) أي : يصيب بذلك الفضل والخير من يشاء إصابته من عباده .

( وَهُوَ الْغَفُورُ ) لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه، كبارها، وصغارها .

( الرَّحِيمِ ) الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغنى عن إحسانه، طرفة عين، فإذا

عرف العبد بالدليل القاطع، أن الله، هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدا

من الخلق، ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجزاه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل .

الفوائد :

١- أن جلب النفع ودفع الضر من خصائص الله عز وجل .

٢- أن المستحق للعبادة هو الله .

٣- إبطال تعلق القلب بغير الله .

٤- وجوب تعلق القلب بالله تعالى .

٥- اطمئنان القلب ، فإن الإنسان إذا أيقن أن رزقه مضمون مكفول ، فإنه يطمئن ويرتاح .

٦- لا أحد يستطيع أن يرد رزق الله عن أحد .

٧- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : الغفور ، والرحيم .

( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) ) .  
 [ يونس : ١٠٨ ] .

( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ) خطاب للرسول ﷺ أن يقول للناس .

• قال ابن عاشور : افتتاحها ب ( قل ) للتبنيه على أنه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقي .

وافتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم ، والخطاب لجميع الناس من مؤمن وكافر ، والمقصود منه ابتداء المشركون ، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم ، وقد ذكر معهم من اهتدى تشریفاً لهم .

• قال الشيخ ابن عثيمين : قوله تعالى ( قل ) فيه أهمية هذا الأمر الذي أمر به النبي ﷺ ، لأن كل حكم أو خير يُصدَّر بقل هو دليل على الاهتمام به، لأن الله جعل له عناية خاصة بالوصية بإبلاغه، وإلا فجميع الكتاب قال الله فيه ( يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ) .

( قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ) يقول تعالى أمراً لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك .

قال القرطبي : قوله تعالى ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ ) أي القرآن ، وقيل : الرسول ﷺ .

وقد قال تعالى في سورة النساء ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ) .

( قد جاءكم برهان من ربكم ) يعني محمداً ﷺ وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وإنما سماه برهاناً لما معه من المعجزات الباهرات التي تشهد بصدقه ولأن للبرهان دليل على إقامة الحق وإيصال الباطل والنبي ﷺ كان كذلك ولأنه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق .

• وقال البغوي : قوله تعالى ( قد جاءكم برهان من ربكم ) يعني محمداً، هذا قول أكثر المفسرين، وقيل : هو القرآن .

وقوله تعالى ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ) أي : ضياء واضحاً على الحق .

والمراد بالنور القرآن الكريم .

• قال ابن عاشور : وأما النور المبين فهو القرآن لقوله ( وأنزلنا ) .

• قال الرازي : والنور المبين هو القرآن، وسماه نوراً لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب .

• وقال القرطبي : النور المنزل هو القرآن؛ عن الحسن؛ وسماه نوراً لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بَيِّن .

• وقال الحازن : وإنما سماه نوراً لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نوراً لهذا المعنى .

• وقال الشنقيطي : الْمُرَادُ بِهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ؛ لِأَنَّهُ يُرِيكُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشُّكِّ كَمَا يُرِيكُ النُّورُ الْحَسْبِي ظُلْمَةَ اللَّيْلِ .

• وقال ابن الجوزي : وإنما سماه نوراً، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور .

( فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ) فَمَنْ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْحَقِّ، وَعَمِلَ بِمَقْتَضَاهُ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أَي : فَإِنَّمَا تَكُونُ مَنْفَعَةٌ

هدايته لنفسه لا لغيره.

( وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ) أي : وَمَنْ ضَلَّ عَنْ هَذَا الْحَقِّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا أَي : فَإِنَّمَا يَكُونُ وَبِالضَّلَالَةِ عَلَى نَفْسِهِ .

( وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ) أي : وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

كما قال تعالى في آيات أخرى :

( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ) .

وقال تعالى ( مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ) .

وقال تعالى ( قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ) .

وقال تعالى ( مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ) .

وقال تعالى ( إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ) .

● قال الألوسي : ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة وتسليية النبي صلى الله عليه وسلم ووعد للمؤمنين والوعيد للكافرين .

#### الفوائد :

١- أن الرسول وما جاء به من القرآن حق .

٢- وجوب الإيمان بالرسول .

٣- وجوب الإيمان بالقرآن .

٤- أن الله لا تضره معصية العاصين .

٥- من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه وينفعها ، ونفع ذلك راجع إليه لا إلى الله .

٦- من ضل فإنما ضلّاه على نفسه .

٧- أن مهمة الرسل والدعاء دعوة الناس إلى الناس ، وأما هدايتهم فلا يقدر عليها إلا الله .

( وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ) .

[ يونس : ١٠٩ ] .

( وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ) أي : وَاتَّبِعْ - أيها الرسول الكريم- في جميع شعونك ما يُوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ تَشْرِيعَاتٍ حَكِيمَةٍ، وآدابٍ قويمَةٍ، علمًا، وعملاً، وحالٍ ودعوة .

( وَاصْبِرْ ) على مشاق الدعوة وتكاليفها ، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر، بل دم على ذلك، واثبت .

( حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ) بينك وبين من كذبك .

( وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ) لأنه هو العليم بالظواهر والبواطن، وهو الذي لا معقب لحكمه.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره الله عليهم، بالحجة والبرهان، فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

### الفوائد :

- ١- أمر النبي ﷺ أن يتبع ما يوحى إليه .
  - ٢- أن الله يعلم نبيه ويربيه .
  - ٣- وجوب اتباع الكتاب والسنة ، كما قال تعالى ( اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ) .
  - ٤- الحث على الصبر .
  - ٥- فضل الصبر لأمر الله تعالى لنبيه بذلك .
  - ٦- تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الله .
  - ٧- أنه لا بد لمن يدعو إلى الحق أن يواجهه من الناس ما يؤذيه إما بالقول وإما بالفعل .
  - ٨- أن الصبر على أذى الخلق وتحمل ذلك من أعظم علامات التوفيق والنصر .
- قال ابن تيمية وهو يتكلم عن الصبر على أذى الخلق للداعية قال رحمه الله :
- النوع الثاني : أن يحصل له بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه ، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جداً، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون .
- وكان نبينا ﷺ إذا أؤذي يقول: يرحم الله موسى لقد أؤذي بأكثر من هذا فصبر .
- وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى ( وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ) .
- ٩- تهديد لكل كافر وظالم ، بأن الله سيحكم بين الناس وسيجازي كلًّا بعمله .

تمت بفضل الله

أخوكم

سليمان بن محمد الهبيد

الأحد : ٢٧ / ٨ / ١٤٣٩هـ